الخيوط المنسية

اليمن و ثلاثون عاما من حكم علي عبدالله صالح

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب:

الخيوط المنسية: اليمن وثلاثون عاماً من حكم علي عبدالله صالح

الكاتب:

عادل علي نعمان الأحمدي

الناشر:

مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر

الجمهورية اليمنية – صنعاء ت. **777113634**

البريد الإلكتروني: info@nafsam.org

الموقع الإلكتروني: www.nafsam.org

رقم الإيداع بدار الكتب ( ) **2008**م.

الطبعة: الأولى يوليو 2008م.

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للمؤلف

الخيوط المنسية

اليمن و ثلاثون عاما من حكم علي عبدالله صالح

تأليف:

عادل علي نعمان الأحمدي

التدقيق والمراجعة:

أنيس ياسين

الصف والإخراج:

رياض الأحمدي

الناشر:

مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر

2008

المحتويات

تقديم: بقلم: نصر طه مصطفى 9

المقدمة 13

مدخل 15

مواصفات الحاكم- تكامل الأداء بين الحاكم والمحكوم- تصورات خاطئة في نظرية الحكم والمعارضة- خطورة الأفكار المستوردة- الحقبة المطريّة وثقافة الخوارج.

اليمن حكاية القوة والضعف 27

اليمنيون أبناء هود عليه السلام- حقبة الصراع اليهودي المسيحي بداية الضعف- حقبة المشاريع الصغيرة (شرعية إلغاء الذات اليمنية) سيناريو التمزيق البريطاني المتوكلي.

العهود الجمهورية وصعود صالح 45

لبس بين مفهومي: الدولة والنظام- الطريق إلى الثورة- علي عبدالله صالح.. ظروف النشأة وملابسات الصعود- طبيعة العلاقة بين صالح والحمدي- السعي لاستقلالية القرار في شمال اليمن- إبراهيم الحمدي.. والمخطط الغادر- أحمد الغشمي.. شهور مدججة بالسخط والقلاقل-توجس الغشمي من علي عبدالله صالح - صالح يدفع باتجاه انتخابه رئيساً - سنوات الإثبات- انقلاب الناصريين ضد عبدالله الأصنج ومحمد خميس- حركة التخريب في المناطق الوسطى- قصة الميثاق والمؤتمر.

22 مايو.. يوم تصفدت الشياطين 79

اليمن الجمهوري ومسامير التشطير- "عاش السلال والعربي جمال"- سفيرة بريطانيا تنصف الكفاح المسلح أكثر من بعض اليمنيين- تزامن جلاء المستعمر مع حصار الملكيين- تزامن جلاء المستعمر مع حصار الملكيين- الحمدي وسالمين.. تقارب أقلق القطبين- صالح وفتاح.. الأساطيل تتحرك- صالح.. الطريق الواثق إلى عدن.

أوجاع ما بعد 90 99

أُسّ الأزمة.. موقف اليمن في أزمة الخليج الثانية- 1992 الاشتراكي معارضاً!!- "علي سالم خدم الوحدة مرتين"- صالح أمام تبعات النصر- احتفالات العيد العاشر "من قلعة الأنصار جاء النبأ".

سنوات اللغط السياسي 115

سقوط بغداد وأثره في تأزيم العلاقة بين السلطة والمعارضة- نكسة المشاريع الوطنية في ظل نظام القطب الأوحد- أطوار العلاقة بين الرئيس والمعارضة- الديمقراطية.. أعراس وأوجاع- الإصلاح يرفض الاندماج مع المؤتمر - المؤتمر يعتمد على قوى الحشد على حساب قوى الكفاءة- انتهازية المشترك بعد 11 سبتمبر- اندلاع زوبعة التوريث وتمرد الحوثي.

ملامسات حول تداول السلطة وسياسة الرئيس 137

"حب الزعامة".. الجذر الأصم للنكسات اليمنية- "الحكم مدرسة متفوقة جداً جداً"- عنفوان الشعب على حساب عنفوان الحكم.

طائرة بلا وقود 157

الإهداء

إلى زملائي الأعزاء أرباب القلم

وحاملي مشاعل التغيير في اليمن الجديد..

أعتزُّ بكم جميعاً..

ولكم أهدي هذا الكتاب..

عادل

تقديم

بقلم: نصر طه مصطفى

طوال الأعوام الثلاثين السابقة صدرت العديد من الدراسات والكتب عن عهد الرئيس علي عبدالله صالح منها ما يدخل في عداد الدراسات الأكاديمية التي تتسم بشيء من الصرامة والجفاف، ومنها ما يدخل في عداد كتابات التزلف والمجاملة التي لن تجد فيها معلومة مفيدة أو موثوقة تعتمد عليها في دراسة جادة، ومنها ما يعد محاولة جادة لرصد وتحليل فترة حكم الرئيس الأكثر إثارة للجدل في التاريخ اليمني المعاصر وصاحب الرصيد الأكبر في الإنجازات ذات الطابع الاستراتيجي والذي تقارب فترة حكمه ضعف فترات الرؤساء الجمهوريين الذين سبقوه مجتمعة... ورغم كل ما صدر من كتابات بأقلام يمنية وغير يمنية فإني أظن أن مسيرة حكم الرئيس علي عبدالله صالح وسيرته الذاتية لم يتم إشباعها بالقدر الكافي من حيث القراءة السياسية والإنسانية التحليلية العميقة حتى هذه اللحظة، وهذا الأمر تحديدا كان الدافع الأساسي الذي جعلني أقف مؤازرا للكاتب الصحفي الشاب الأستاذ عادل الأحمدي في إنجاز كتابه هذا الذي بين أيدينا اليوم الذي أعتبره – على صغر حجمه – أهم ما صدر عن فترة حكم الرئيس علي عبدالله صالح من حيث عمق القراءة التحليلية المشبعة بعبر التاريخ ودروس الحاضر وتطلعات المستقبل.

لا يسعى عادل الأحمدي من خلال هذا الكتاب إلى تقديم رصد تاريخي متسلسل لمسار حكم الرئيس صالح لكنه يسعى من خلال موقعه الفكري والسياسي المستقل، إلى تقديم قراءة جديدة غير تقليدية وغير متزلفة لثلاثين عاما من قيادة الرئيس لليمن بكل ما فيها من انتصارات وانكسارات، وإنجازات وانتكاسات، وتحالفات وصراعات، وآمال وآلام... ولأن الهدف

موضوعي بحت فإني أظن أن عادل قد توفق كثيرا في العديد من وقفاته التحليلية المميزة والشجاعة والجريئة التي أنصفت الرئيس الصالح من مناصريه قبل خصومه، إذ أن أنصارك قد يخذلونك في كثير من الأحيان – من دون قصد وبحسن نية – من حيث يعتقدون أنهم ينصفونك ويساندونك ويقفون إلى جوارك بينما هي في الحقيقة وقفة من النوع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع باعتبارها تهدف إلى منافقة الرئيس نظريا دون أن تقدم مساندة عملية تذكر... أما إنصاف الرئيس من خصومه فهو أمر أجاد فيه عادل وأفاض دون نفاق أو تزلف أو تجن على الخصوم إذ حاسبهم بما نطقت به ألسنتهم وحاصرهم من مواقفهم المعلنة والمشهودة، ومع ذلك سيتهم عادل بما لم يقترفه قلمه كما هي العادة فأن تكتب دراسة عن رئيس لازال في الحكم حتى لو كانت موضوعية سيعني عند مزايدي المعارضة فورا وبدون حتى أن يكلفوا أنفسهم عناء القراءة أنك أصبحت منافقا وبائعا للمبادئ التي يكيفونها بحسب مواقفهم ومصالحهم وليس بحسب رؤية ثابتة لا تتزحزح ولا تتغير والشواهد نعرفها جميعا.

من الشجاعة أن نكتب عن علي عبدالله صالح اليوم وهو يمضي دورته الرئاسية الثانية والأخيرة، ومن الشجاعة أن نقول له اليوم وعبر دراسة ناضجة كهذه التي بين أيدينا ماذا نريد منه في السنوات الخمس المتبقية من ولايته، ومن الشجاعة والمروءة أن ننصف الرجل الذي وحد اليمن وقدم لها الكثير وهو لازال في الحكم دون حاجة أن نزجي له عبارات التزلف والتأليه التي غدت ممجوجة وخارج نطاق العصر ناهيك عن أن مضارها وسلبياتها أكبر بكثير من فوائدها وإيجابياتها... ومن هذا المنطلق وهذه الرؤية المحايدة والنقية يأتي هذا الكتاب الذي عمل فيه عادل الأحمدي لشهور عدة بدأب ودون توقف ليقدم للناس رؤية جديدة متجددة وقراءة تأصيلية هادئة وفق منهجية راقية ودون دش أو حشو لثلاثة عقود من الحكم الصعب في بلد صعب قادها رجل جاء من أوساط بسطاء الناس وظل

بسيطا رغم كل الهالة المحيطة به ورغم الإنجازات الضخمة التي حققها والتي يدرك أن بلدا كاليمن كان يعيش – حتى ستة وأربعين عاما خلت – تحت الصفر في كل شيء لازال أمامه المزيد والمزيد ليحققه وينجزه... ولذلك لن تقرؤوا في هذا الكتاب سيرة ذاتية كما لن تقرأوا فيه رصدا تاريخيا مسلسلا لكنكم ستجدون فيه قراءة تحليلية مميزة لشخصية ومواقف أهم قادة اليمن في العصر الحديث، وهذا في تصوري أمر جديد سبقنا إليه عادل الأحمدي بقلمه وفكره الذي يجمع بين روح الأديب والشاعر وفلسفة السياسي والمثقف وعمق المحلل والمؤرخ.

صنعاء 12يوليو2008م

مقدمة

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله..

ثلاثون عاماً على تولي الرئيس علي عبدالله صالح الحكم.. بدت المناسبة مغرية لي لإنجاز كتاب رجوت من خلاله أن يمثل إضافة جديدة باعتباره يحمل وجهة نظر مواطن يمني نشأ ترعرع في عهد الرئيس علي عبدالله صالح.

وفي هذا الكتاب لم أحاول التوثيق الدقيق لأحداث وتحولات هذا العهد بقدر ما حرصت على أن أضعه في سياقه الزمني الطبيعي. محاولاً في البداية إعادة النظر في معايير التقييم وسائد التصورات، ذلك أن ثمة خللاً منهجياً فادحاً أصبح يعتور ساحة التصورات وطرائق التقييم إلى أن انخرط الجميع في غمرة التفاعل اليومي مع مستجدات الأحداث دون أن يحاول أحد الإمساك بتلابيب الصورة كاملة. وهذا باعتقادي هو ما سُنح لي من خلال خوض تجربة التأليف في هذا الكتاب الذي آمل أن يمثل شيئاً ذا قيمة لدى القارئ الكريم..

وحسبي أنني حاولت وبذلت ما في وسعي وأن مقصودي من هذه المحاولة خدمة الحقيقة والإسهام في توسيع دوائر الرؤية، ووضع ما أمكن من النقاط على ما أمكن من الحروف. ذلك أنني أشعر بضبابية كثيفة في الرؤية لدى الكثير من الكتابات والتقييمات الراهنة، واختلال فادح في المعايير مع غياب مشين لكثير من "الخيوط" اللازمة للوصول إلى تشخيص واقعي للأوضاع الراهنة والإمساك بتلابيب اللحظة اليمنية النافرة.

أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا الكتاب.. بدءاً بوالديّ العزيزين، حفظهما الله، اللذين ربياني وعلماني وأرشداني إلى معالي الأمور.. كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى شريكة العمر التي هيأت لي ظروف التأليف المناسبة وصبرت علي وأمدتني بكثير من المحفزات والشكر موصول إلى كافة الأهل وفي مقدمتهم أم عمار ، وأم بشار ، وأم صادق، وأم ضيه والأخ زين العابدين، كما أشكر أبنائي على كل الدقائق التي فوتوها عليّ أثناء التأليف، ولعل الشكر الأكبر أقدمه لأخي رياض الأحمدي المهندس والمبدع الذي لم يقتصر إسهامه على التكفل بكافة اللمسات الفنية بل كان ملهماً لي بالكثير من الأفكار، ولقد عاش مع الكتاب لحظة بلحظة وطوراً بطور. كذلك أشكر صديقي الأستاذ أنيس ياسين رفيق الدراسة والسياسة وليالي التأليف. كما لن أنسى أن أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذي الكبير نصر طه مصطفى الذي وقف إلى جانبي مؤزراً ومسانداً، وتكرم بهذا التقديم السخي الذي أعده وساماً على صدر الكاتب والكتاب. ولله تعالى الحمد من قبل ومن بعد، له المنة وله الفضل وله الثناء الحسن.

عادل الأحمدي

صنعاء 20يوليو 2008م.

مدخل

اقتضى تكاثر بني البشر وتعدد قدراتهم واحتياجاتهم: اجتماعهم، واقتضى اجتماعهم: اختلافهم وفقاً لتباين مصالحهم وأفهامهم وثقافتهم. واقتضى الاختلاف وجود حكَم من بينهم يستطيع المواءمة بين الفرقاء ويجنبهم الصراع ويفرض قراره فيما اختلفوا فيه بما يمتلكه من شوكة وقوة شخصية وإجماع مسبق. وبالتالي يتوجب عليهم الطاعة والنصيحة ويتوجب عليه العدل والاستشارة. ذلك أن للصواب وجوهاً قد تغيب عليهم أو عليه.

من هنا فإن قوة أية دولة تكون بقدر فَهْم أهلها ونخبها للحدود الفاصلة بين حقوق وواجبات الحاكم تجاه الشعب وحقوق وواجبات الشعب تجاه الحاكم.. وعلى قدر انسجام واكتمال هذا الفهم تكون مسيرة البلد نحو القوة ثم القوة الإقليمية ثم المشروع العالمي في حال اضطراد التماسك ووجود مشروع تعبوي جذاب؛ يقوي اصطفاف الداخل ويستغل أوضاع الخارج.

والقصة في كل الأحوال مسألة سيطرة وحصد مصالح، وعلى قدر خيرية و"سننية" المشروع التعبوي الملهِم لمشروع الدولة (سواء كان ديناً سماوياً أو نظرية فكرية أو حاصل مزج بينهما) وكذا على قدر دأب المجموع الصاعد بحكامه ومحكوميه تستمر فترة التمكين، والعكس صحيح.

مواصفات الحاكم

وفقاً لما سبق يبدو أن الرؤية ليست واضحة عند حكام اليوم ومحكوميهم في وطننا العربي فيما يتعلق بالحدود الفاصلة بين حقوق وواجبات كل طرف. وإنه لمن البدهي والمفترض ألا يلغي وجود الحاكم دور المحكومين في الإسهام في تسيير دفة الأمر؛ إذ في تقديري، أنه يكفي أن يتمتع الحاكم بمواصفات أساسية هي أساس كونه يستحق بجدارة الجلوس على مقعد الحكم، تتمثل في قوة الشخصية التي يفرض بها رأيه عند اختلاف المحكومين، وكذا عدم انحيازه لطرف دون آخر، وهو ما يسمى بالعدل، (وإلا لكان بدون العدل طرفاً من هذه الأطراف المختلفه وليس حكماً بينها). ولكي يسري حكمه على الجميع؛ ينبغي أن الجميع هؤلاء، أو معظمهم، قد ارتضوا به حكماً بينهم، وبالتالي فهم ملزمون بما سوف يصدر عنه من قرارات حتى وإن لم تعجب البعض منهم.

أقول: يكفي في الحاكم قوة الشخصية ووجود مؤسسات إلى جانبه ذات خبرة وشوكة تعينه على نفاذ أوامره وتجمع له البيانات اللازمة، وتبصره بأهل القدرات وذوي الجاهزيات في المجتمع ليضع كلاً منهم في مكانه المستحق خدمة للصالح العام، كما تزوده بالخطط اللازمة وفق سُلَّم الأولويات. وبالتالي فإن الحاكم الناجح هو الذي يكون عنده فراسة بالرجال، فلا تنطلي عليه أساليب التحايل، وكذلك يكون انحيازه إلى الحق والمصلحة العامة أكثر من انحيازه إلى شخصه، حتى لا يتسلق المبطلون إليه

عن طريق امتداحه، ولن تتوفر له هذه الخاصية الأخيرة ما لم يُظهر له الجميع توقيراً واحتراماً يليق بمكانته، لا يضطر بعده إلى امتداح من أحد يحفظ به لنفسه شيئاً من العزة التي قام البعض بالتفريط فيها.

تكامل الأداء بين الحاكم والمحكوم

مع هذا؛ حتى وإن وجد الحاكم الذي يحوي كل هذه المواصفات، فإن قافلة المجموع المحكوم لن تسير إلى الأمام ما لم يكن أصحاب التخصصات والجاهزيات والرؤى النافذة في المجتمع واعين لواجبهم في تكميل الصورة، فيقوم، مثلاً، أصحاب الاقتصاد والفاهمون فيه بإمداد الحاكم بالرؤى النافعة في مجال تخصصهم؛ إذ هم أساساً يمتلكون الرؤية وهو يمتلك السلطة الكافية لإنفاذ هذه الرؤية وإخراجها إلى حيز التطبيق. كذلك هو الحال في بقية المجالات، التعليم والصحة والعلاقات الدولية والإعلام وقضايا الأمن القومي... إلخ.

ولا تحدث انتعاشة لأي شعب ما لم تتنافس فيه الرؤى على إبراز نفسها، كلٌ في مجاله، كي توفر للحاكم كماً وافراً من الخيارات النافعة.

ويحدث أحياناً، كما هو الحاصل الآن في بلادنا، أحد أمرين أو كلاهما معاً وهما:- إما أن يفترض أصحاب الجاهزيات والنخب المتخصصة وعموم الشعب في الحاكم فهمه في كل شيء، في الاتصالات، والزراعة، والأسماك، والبيئة... الخ، فلا يبادرون بتقديم الرؤى المساعدة له؛ بل يتركونه لاجتهاده ثم يسلقونه بألسنة حداد حين لا يحالفه التوفيق!

وإما أن يتجرأ فقط ذوو الرؤى القاصرة، ويتفننوا في تقديم طروحاتهم للحاكم ويقنعوه بها، فيما أصحاب الرؤى السديدة قابعون في البيوت، ينتظرون أن يأتي الحاكم إلى بيوتهم ويتوسل إليهم رؤاهم، وهذه هي منتهى السلبية والسذاجة، لأن أمثال هؤلاء لم يدركوا سنة لطيفة من سنن الله في الحياة، وهي أنه لا يكفي أن يكون لديك شيء نافع ما لم تعمل على إخراجه للناس وإعماله في ساحة النفع. لهذا ورد في الأثر النبوي أن: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".

تصورات خاطئة في نظرية الحكم والمعارضة

إن ما يمكن تسميته بعلم الحاكم والمحكوم؛ يعتوره في أيامنا هذه خطل كثير وتصورات مغلوطة، منها؛ أن التنافس للوصول إلى الحكم غدا أمراً تجيزه الدساتير، وتقننه القوانين. وهذا مكسب حقيقي. غير أنه لا توجد لوائح تنظم تسديد دفة الحكم وتلزم أهل الرؤى تقديم رؤاهم، وتكفل لهم حقوقهم المادية والمعنوية. وهذا أساساً هو ما يتم تحقيقه عند وجود عمل مؤسسي، لكن المؤسسية في بلداننا لم تزل شعاراً تستهلكه الأفواه ولّما يصل بعد إلى تنزيله على أرض الواقع تشريعياً وعملياً. زد على ذلك أن مضمار التنافس السياسي عندما يتم خوضه بشكل مشوش من قبل السلطة والمعارضة، فإنه يطال الجاهزيات والقدرات الوطنية اللازم حيادها في مربع السياسة وتفرغها لخدمة الصالح العام أياً كانت انتماءات أصحابها.

والحاصل في كل ذلك أن حالة التنافس المحموم للوصول إلى الحكم جعلت من الحكم وكأنه مغنم لا مسئولية بالغة؛ "إذ حينما يَزِلُّ الحاكم فإنه يزلُّ بزلته خلق كثير"، تماماً مثلما أن أي قرار خاطئ مهما كان صغيراً فإنه قد يكون إثماً يتسبب في معاناة الآلاف، وحدوث الكثير من الظلم.

ومن التصورات الخاطئة كذلك، الممارسة الخاطئة لمصطلح القوى السياسية المنافسة التي تعرف باسم "المعارضة"؛ إذ أن استعمال مثل هذا اللفظ قد فعل مفعوله في لاوعي الناس مع مرور الأيام، بحيث أصبحت وظيفة هذه القوى وكأنها مجرد "الاعتراض" على تصرفات الحاكم وأجهزة

الحكم، حقاً كان الاعتراض أو باطلاً. في حين أن لفظة "المعارضة" لا تعني الاعتراض بل المحاكاة، أي قيام القوى المنافسة بعمل يوازي عمل الحزب الحاكم ولا يصادمه، وذلك من باب التنافس على تقديم الأفضل. ولذلك يقال في اللغة: "عارض شاعرٌ شاعراً آخر" إذا كتب على منوال قصيدته وجاراها في الموضوع والوزن والقافية! وتكون ثمرة ذلك مزيداً من الإثراء والإشباع وخدمة الصالح العام، علاوة على الاعتراف بالآخر.

خطورة الأفكار المستوردة

إن من التصورات الشائهة عدم اعتراف الفكر السياسي السائد بخصوصيات كل شعب ومعتقداته وتحدياته وظروفه وموقعه في ركب المرحلة، وهو ما أدى إلى الاعتساف في إنزال أنظمة حكم توصلت إليها بعض الدول المتقدمة بعد عنه وتدرج طويل، على مجتمعات نامية لم تتبلور لديها بعد هوية النهوض، ولا أهمية القانون، ولم تزل عرضة للأخطار الماحقة التي تهدد أمنها الغذائي والوطني بشكل عام، وعدم مراعاة سلم الأولويات لدى هذه الشعوب التي لم تستكمل فيها الحد الأدنى من البنى التحتية في المجالات المعيشية والنمو الاقتصادي. كما –وهو الأهم – لم يصل فيها الوعي السياسي إلى درجة النضج؛ بحيث لا يؤثر التنافس على المصالح العامة للشعب ولا يصل التنابز الحزبي حد الإضرار بأركان الهوية الوطنية والسيادة اللازمة؛ بل لا توجد فيها سوابق لتدارك الكوارث الناجمة عن الاستخدام الخاطئ للحرية، ذلك أن الاستخدام الخاطئ للحرية قد يحدث ردة مأساوية، من الصعب بعدها الإتيان بالحرية مرة أخرى إلا بعد حقب طوال.

من هنا فإن مراعاة ظروف كل بلد سيؤدي إلى استخدام واعٍ للحرية من شأنه ترسيخ هذه الحرية وتعزيز الأداء الوطني المتضافر بين الحاكم والمحكوم، بما لا يفتح مجالاً للردة عنها، أو التحايل عليها.

ومن التصورات الشائعة أيضاً، في تقديري، الاعتقاد السائد بأن النظام الديمقراطي هو الوحيد الذي يحكم فيه الشعب نفسه، هذا صحيح، عندما تأخذ الأمور مأخذاً سطحياً، غير أن الأصح هو أن أي شعب في أي مكان وفي أي زمان وعبر أي نظام حكم هو الذي يحكم نفسه؛ إذ في كل الأحوال لا يعد الحاكم وجماعته سوى أفراد قليلين مقارنة بالكم الهائل الذي هو قوام الشعب، ولا شيء يجبر أو يمنع أي شعب على تغيير نمط احتكامه وأسلوب تداوله.. لا شيء غير الشعب نفسه. لكن الديمقراطية هي آلية الحكم التي يمارس فيها الشعب حكم نفسه بشكل مباشر ومعلن.

وهذه هي سنة سائرة تنطبق على كل الشعوب والدول والأزمان، عدا في حالة واحدة؛ عندما يستغل لصوص المناصب عاطفة الشعب ومعتقداته ويمارسون الدجل عليه ويفرضون شوكتهم عليه بشوكة خارجية، ويقتلون أحراره ومراكز القوى المهمة فيه، ومثل هذه العصابات من تجار التاريخ ومقاولي الدول تكون عواقبهم وخيمة، وهم من ناحية أخرى، في اعتقادي، عقاب من الله لا يسلطه المولى -عز وجل- إلا على شعوب بَطَرت حكامها، وتقاصرت في تقديم النصح أو أكثرت من تمجيدهم حتى حولتهم إلى أصنام؛ ثم ولولت بعد ذلك تستنجد بالآخرين أملاً في إزالتهم.

ذلك أن الأداء السوي كما أسلفنا يتكون من شقين، أحدهما الحاكم وأجهزة الحكم. والآخر المحكومون ممثلين بنخبهم ومثقفيهم وأعيانهم ومؤسسات المجتمع المدني.

الحقبة المطرية وثقافة الخوارج

أصبح سائداً في الفترة الأخيرة أن مجرد جعل الحاكم موضوع بحث أمر مثير للشكوك، مع أنه لا شيء يؤثر في حياة الأمم والشعوب كما يفعل الحكام، وبالتالي لا أحد أولى بتقييم تجربته ودراسة أدائه وتنوير مداركه مثل ما هو حال الحاكم. لكن ثقافة الخوارج استوطنت في قلوبنا منذ عقود جراء تتالي فترة الهوان العربي. الأمر الذي أصبح فيه راسخاً لدى الوعي الجمعي، وكأن الحكام، وبلا استثناء، لا يستاهلون إلا القدح والتخوين، كما لم تقم أبداً أية دراسة جادة تحاول أن تقول لأي حاكمٍ: إنك عندما اتخذت القرار الفلاني الذي أثر سلباً على مكانة بلدك وأمتك، كان بإمكانك أن تتخذ قراراً غيره تضمن معه صون شعبك ومنعة منصبك.

انداح لهذه الثقافة الخوارجية كُتاب وقصائد وصحف وقنوات، فكانت "لافتات الشاعر العراقي أحمد مطر" إحدى المكونات الحقيقية للعقلية العربية الشعبية المعاصرة، وعلى ذلك قس. ثم ازداد الأمر تعقيداً لتبلغ الثقافة الخوارجية أوج مجدها في عهد القطب الأوحد الذي بدأ يقول للشعوب ما هو الحكم الرشيد، وما هو الحكم الضال، ويفصل بدلات الحكام على مزاجه، ويمنح صكوك الغفران الرئاسية وفق مصالحه، ويتلاعب بالمعايير متى يشاء، ويتراجع عن مبادئه بكل سلاسة، تماماً كما

يفعل الثعلب. وغرضه من ذلك جعل الحكام مهددين بشعوبهم، وجعل الشعوب فاقدة الأمل بحكامها. وبالتالي لا مناص من أن يولي الجميع وجهته شطر البيت الأبيض، الضامن الحقيقي لمناصب الحكام، والمنقذ المثالي لمعاناة الشعوب!

والمؤسف حقاً أن الثقافة هذه، وبتمويل من البيت الأبيض، وبإشراف من سفاراته ومنظماته المبعثرة في جميع أنحاء العالم، انتشرت وازدهرت رغم الخلل الفادح في تطبيقاتها.

تعاضدت هذه السياسة المدعومة من القطب الحاكم الأرض مع ثقافة التيارات الأيديولوجية الأصولية الصاعدة، والتي منها تنظيم القاعدة، وهو نمط متطور من فكر الخوارج الذين لا يقبلون لا بهذا ولا بهذا ولا بذاك؛ ويجدون في الآثر القرآني والنبوي بالتأويل والاعتساف ما يجعلهم يؤمنون حد اليقين بتصوراتهم، ويجزمون بلا جدوى الواقع المحيط برمته.

هؤلاء كذلك أسهموا في نشر الثقافة الخوارجية التي أصبحت موضة الشعوب والقنوات والندوات ومادة للمزايدات والمكابرات. الأمر الذي جمّد حركة التفكير اللازم توجُّهه إلى مركز الحكم، فتقاعس الكتاب والمفكرون عن واجبهم في الكتابة للحاكم (وفق تعبير المفكر أحمد قائد الأسودي)، فتوجّس الحكام من شعوبهم، وأصبحت كلمة الصدق نادرة ندرة الماس، بائرة، لا تصل إلا على طبق من الشكوك والتأويل. وهذا أدى إلى جمود ظاهرة الفكر السياسي وفكر الدولة وعلم إدارة الحكم..

كل هذا أدى إلى حالة من الارتباك الوطني تترسخ يوماً بعد آخر، وتعوق الثمار الحقيقية للتنمية، وتجعل الأداءات كلها، رسمية وأهلية ومعارضة، بلا طعم ولا لون ولا رائحة. لم يعد ثمة فرق بين الهدم والنضال

وبين النقد والسبّ، وبين الإصلاح والإغاظـة، وبـين التنـوير والتضـليل. وذلك كله كإحدى محصلات الفوضى الأمريكيـة الخلاّقـة في ظـل انعـدام تبلور البدائل النظرية التي تفيد البشرية جمعاء!!

اليـمـن

حكاية القوة والضعف

لكل بلد حكايته الطويلة.. ولكل حكاية تفاصيلها وأسماؤها ونقاطها المضيئة والمعتمة.. ولكل شعب ذاكرة –نائمة أو مستيقظة والمكان أيضاً له ذاكرة. وأشد الشعوب تعاسة هو الشعب الذي تَعَرّضَ لعمليات قاسية ومتوالية بغرض عزله عن ذاكرته..

من ثم، فإن أصعب المهمات أمام المفكرين والمثقفين والساسة هي مهمة إعادة الذاكرة لشعب حيل بينه وبين ذاكرته..

هذا البلد هو اليمن..

وهذه المهمة هي التحدي الذي تجابهه النخب اليمنية الحية منذ بدء القرن العشرين وإلى الآن.. ذلك أن اليمنيين عاشوا أطول فترة غيبوبة على مدى التاريخ.. تماماً مثلما عاشوا إبان حضارتهم أطول فترة تمكين واستقرار على مدى التاريخ.. لكن الشعوب القوية تستعيد عافيتها بسرعة. ويحدث أثناء هذه الاستعادة لغط وارتباك واستعجال كثير. كما تتعرض بالمقابل لمحاولات محمومة بغرض إبقائها في حالة الغيبوبة..

فَهْم هذا الأمر يساعدنا ولا شك على معرفة ما الذي يحتاجه اليمنيون في الوقت الحاضر، ولماذا صاروا إلى ما هم عليه الآن. سواء الشعب أو الحكام المنبثقون عنه وذلك وصولاً إلى إسقاط تلك المتغيرات على سياق

سياسة الرئيس علي عبدالله صالح، وما إذا كان ينطلق في سياسته من إدراك عميق لماضي وحاضر الأمة، أم لا.

وعموما لا غنى عن إعطاء نبذة مختصرة عن حكاية اليمن كمدخل للباب الذي نحن فيه. وللأبواب التي تليه..

اليمنيون أبناء هود عليه السلام

في لحظةٍ ما وصل اليمنيون إلى أهمية أن يكونوا كياناً متفقاً على أن يغدوا رقماً صحيحاً في حلبة الأمم في العالم القديم.. وكانت الزراعة أساس البناء المادي لهم ودعموها بالسدود، ثم لما قوي شأنهم عززوها بالتجارة والصناعة وتتالت ممالك القوة دون فترة ضعف فاصلة تؤثر على تواتر انتقال الخبرة.

ولارتباط اليمني بالزراعة كان ارتباطه بالمطر ومن ثم اتجاهه نحو السماء، وهذا سر غريزته الإيمانية التي جعلته في كل الحقب متوجهاً نحو آلهة سماوية، سواء الشمس أو القمر. وذلك قبل أن يهتدوا إلى عبادة الله الواحد الأحد سبحانه لا شريك له، والذي أسلم له اليمنيون وعبدوه على دين موسى وعيسى ثم خاتم النبيين محمد، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم.

ولطبيعة الإنسان اليمني الدائبة، ولحدود اليمن الطبيعية (البحر والصحراء) نشأ انتعاش فكري واقتصادي وحالة استقرار سياسي وكذا انعدمت حالات العدوان المؤثّر من وإلى اليمن. ومن ثم تركز التطور على العمران والهندسة ومختلف مناحي الرخاء؛ إذ كان يسميه اليونان بلد

القصور. ثم عرف بعد ذلك بـ "بلاد العربية السعيدة" أو اليمن السعيد، والسعادة تعني أعلى درجات التوافق والتنوع الذي أدى إلى اشتداد القوة وتواتر الرخاء.. قال تعالى:" لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" [1].

بلغ الاستقرار أَوَجَهُ في العهد السبئي دون مزعج خارجي عمل على تفشيله سوى ما جنته أنفس القوم، فبدل الله جنتيهم "جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ "[2].

والحديث عن اليمنيين حديث عن سكان غرب الجزيرة بعيداً عمن هاجروا وبعيداً عن ضرورة الأرومة القحطانية التي تمثل الأصل الجامع لسواد السكان.. وهو حديث عن حضارتهم كحاصل تفاعل الإنسان مع الأرض. أولئك الذين ملأت مسروقات آثارهم كل متاحف العالم.. وهذبتهم بعض الروادع أيام الأنبياء..

بعد مرحلة الطوفان كون الأشخاص الذين نجوا في سفينة نوح عليه السلام سكان الأرض الموجودين حالياً، منهم من هو من سلالة النبي نوح، كأولاد سام وحام، ومنهم من ينحدر من ذرية من نجا معه. ومعروف أن المصريين– على سبيل المثال– هم من أولاد حام بن نوح، تماماً كما أن اليمنيين يعتبرون من ذرية سام بن نوح جد سبأ الذي هو أبو اليمنيين قاطبة، وتكاد معظم القبائل والمناطق اليمنية التي احتفظت بأسمائها إلى

---

1 – [سبأ: 15].

2 – [سبأ: 16].

الآن هي أسماء أبناء سبأ كحمير بن سبأ وكهلان بن سبأ وحضرموت بن سبأ[3]..

تكون من ذرية سبأ النسيج الأول للشعب اليمني في العصور الأولى والذين بنوا حضارات متعاقبة، منها حضارة قوم عاد وثمود وغير ذلك.. فتم مع مرور التاريخ ما يشبه التصفيات، بسبب العقوبات الإلهية حتى أيام هود عليه السلام. التي يقال إن أرومة الشعب اليمني الحالي تنحدر من سلالة النبي هود الذي لم يؤيده الله بمعجزات قط. وكما أسلفنا؛ فإن الحضارة اليمنية القديمة التي امتدت قروناً من الزمان أيام معين وسبأ وحضرموت وقتبان لم تتقوض بعوامل خارجية، بل بعوامل داخلية، يتمثل أغلبها في كفران النعمة، ما أدى إلى سيل العرم، الذي أتى على كثير من حواضر الحضارة اليمنية القديمة وأدى إلى هجرة كثير من اليمنيين.

لكن اليمن ظل قوياً ومزدهراً طيلة الحقبة الحميرية وبلغ أوج مجده أيام أسعد الكامل؛ الذي جمع اليمنيين من جديد في وحدة سياسية واحدة. وساعدت عوامل عدة على بقاء اليمن قوياً وموحداً، لعل من أهمها: أصل اليمنيين الواحد وتشابه وتكامل رقعتهم الجغرافية، بالإضافة إلى عامل مهم جداً في نظري هو أن اليمنيين في عهد التبابعة الحميرين اعتمدوا آليات إدارية واقتصادية واجتماعية غاية في التماسك والفاعلية، بسبب كونها قامت على دراسة عميقة ودقيقة للواقع اليمني وللإنسان اليمني.. الأمر الذي جعل من دولة التبابعة مضرباً للمثل في القوة والازدهار..

---

[3] – علماً أن لسبأ كما ورد في الحديث النبوي الشريف عشرة أبناء، أربعة منهم ظلوا في اليمن ويعتبرون أساس غالبية الشعب اليمني (التي تنحدر من الأرومة المسماة بالقحطانية)، وستة هاجروا إلى العراق والشام.

يقول الله عز وجل: "أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ".[4] ولذا فإن الذي يعود إلى أشعار العرب قبل بعثة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، يكتشف إلى أي حد كانت قوة التبابعة هي المادة الملهمة للخيال الأدبي حد تصوير التبابعة بقوة خرافية.

حقبة الصراع اليهودي المسيحي.. بداية الضعف

عادة لا تسقط الحضارات القوية دفعة واحدة؛ بل تعاني فترة احتضار قد تمتد قروناً تتنازعها خلال هذه الفترة أحلام العودة إلى أسباب الماضي المجيد من جهة، وضرورات سريان سنة الله في الدول والممالك حينما تحين شيخوختها من جهة ثانية.

كان اليمنيون في الفترة الحميرية قد اعتنقوا الإسلام الذي جاء به موسى عليه السلام ودخلوا كعادتهم في دين الله أفواجا، وعندما بعث الله عيسى عليه السلام دخل جزء من اليمنيين في الدين الجديد بينما ظل الجزء الآخر، ومنهم الحكام، على دين موسى عليه السلام الذي تعرض لكثير من التحريف وانتقل من خانة الإسلام إلى خانة اليهودية.. وبالإمكان القول إن حقبة الاحتراب الديني بين أتباع اليهودية والنصرانية تعد البداية الحقيقية لضعف الحضارة اليمنية القديمة في آخر أطوارها وهو الطور الحميري. ولا يعد الغزو الحبشي ثم الفارسي إلا طوراً من أطوار فترة الضعف والشيخوخة. فكان أن ارتكب الملك ذو نواس الحميري، الذي كان يعتنق اليهودية، محرقة أصحاب الأخدود الذين كانوا على دين

4 – [الدخان: 37].

عيسى عليه السلام.. فظهرت في اليمن مشكلة اضطهاد ديني اضطرت السلالة اليمنية التي حكمت الحبشة (وكانت تعتنق النصرانية)، أن تتدخل لصالح النصارى المضطهدين على يد اليهود الحاكمين في اليمن.. فكان ما عرف من أمر الغزو الحبشي الأول ثم الغزو الحبشي الثاني الذي تزامن مع وجود سيف بن ذي يزن الحميري الذي كان على دين اليهودية، ووجد حينها أن للأحباش مشروعاً دينياً توسعياً يأتي ضمن التوسع المسيحي. فذهب إلى الفرس طلباً للنجدة، وكانت قد تعمقت صلات استراتيجية بين الفرس واليهود منذ قيام الفرس بتحرير اليهود من الغزو البابلي. وبالتالي؛ زود الفرس سيف بن ذي يزن بحملة عسكرية مكونة من مجاميع سياسية متمردة على كسرى كانت مودعة في السجون ومحكوماً عليها بالإعدام.. فأراد كسرى بذلك أن يضرب "عصفورين بحجر": تلبية طلب سيف بن ذي يزن، والتخلص من أولئك المتمردين. وبالفعل تم لذي يزن طرد الأحباش من اليمن، ساعده في ذلك النكسة التي تعرض لها جيش الأحباش في مكة بواسطة الطير الأبابيل في العام المسمى عام الفيل.

لكن الواقع الذي ترتب على هذا الأمر هو أن اليمنيين استبدلوا غزواً بآخر.. فحل الفرس محل الأحباش، وأقاموا تحالفاً مع بعض القبائل اليمنية واستولوا على صنعاء عاصمة الحكم وجعلوا اليمن تابعة للنفوذ الفارسي الساساني، ولعل آخر المعارك وأشرسها بين المقاومة اليمنية والوجود الفارسي كانت "معركة الردم" التي شارك فيها الصحابي الجليل

"فروة بن مسيك المرادي" قبل إسلامه، وكان الإسلام يومها قد انتقل من الطور المكي إلى طور المدينة المنورة.[5]

انتهت معركة يوم الردم بانتصار الفرس والقبائل اليمنية المتحالفة معهم، وهزيمة جيش المقاومة ودخلت المشكلة دوراً أخف وطأة بعد إسلام باذان عامل كسرى في صنعاء.. لكن المشكلة بين الفرس واليمنيين عادت من جديد بعد أن أراد الأبناء الفرس أن يتوارثوا حكم اليمن دوناً عن اليمنيين الذين كانوا يومها يأبون تماماً أن يحكمهم أناس من غيرهم. وهو ما كان يتفهمه النبي صلى الله عليه وسلم، فاحتار فيمن يبعث إلى اليمن، حتى نزل إليه الوحي بإرسال الصحابي اليمني معاذ بن جبل، رضي الله عنه.

وإنما كان الأبناء (وهي التسمية التي عرف بها أبناء الفرس في اليمن) يريدون أن يتوارثوا الحكم بينهم من باذان بعد أن أقره النبي صلى الله عليه وسلم على حكم صنعاء. تزامن سعي الأبناء مع موت النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتعلت مقاومة يمنية من جديد وقام الأبناء بتوثيق عراهم مع المدينة المنورة. الأمر الذي أدى إلى ردة سياسية في اليمن عن سلطة المدينة المنورة أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سرعان ما تحولت في جزء منها إلى ردة دينية، وذلك عندما قام أحد قادة المقاومة اليمنية ضد الفرس وهو عبهلة بن قيس العنسي (الأسود العنسي)، بادعاء النبوة. الأمر الذي أفشل هذه المقاومة، وقامت حرب ضروس على أسوار صنعاء بين المسلمين وبين مناصري الأسود العنسي، الذي خسر كثيراً من

---

[5] – وهي القصة التي يوردها المؤرخ محمد حسين الفرح في كتابه "يمانيون في موكب الرسول"، ويقول فيها أيضاً: يومها كانت عمليات النهب لآثار الجوف سارية على قدم وساق!! (وبالطبع لم تزل عمليات النهب سارية حتى اليوم ولم تنته الآثار بعد)..

مناصريه بسبب تلك الدعوة. وانتهت بمقتله على يد زوجته، بعد المعركة الحامية التي دارت في منطقة "المشهد" بشعوب، صنعاء.[6] وبالتالي أفشلت هذه الحرب على الأبناء احتكار السلطة فتحولوا بعدها إلى مواطنين يسهمون في كل مجالات الحياة اليمنية إلى الحد الذي نسى فيه الكثير منهم أصولهم الغابرة (على عكس ما حدث مع الهادويين الذين جاءوا بعد ذلك) وبمجرد ذلك انتهت الردة في اليمن، والتي بالفعل لم تكن ردة دينية والدليل على ذلك أن جميع القادة في صف الأسود العنسي عادوا إلى الإسلام بسهولة، ومنهم الفارس الشاعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، والشدادي ووجيه حضرموت الأشعث بن قيس.

ولدهائه الكبير، فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كلاً من: عمرو بن معد يكرب والشدادي إلى العراق ليشد بهما أزر سعد بن أبي وقاص في معاركه ضد الفرس، وذلك لعلمه بما يكنان للفرس من عداوة، ولإدراكه معرفتهما بأساليب الفرس القتالية.. ومعهما رسالة من لدنه إلى سعد يقول فيها: لقد أمددتك بألفين من المقاتلين: عمرو بن معد يكرب، والشدادي. وكان لهما بالفعل دور في سيرورة المعركة لصالح المسلمين عندما أشارا بضرب خراطيم الفيلة في "معركة القادسية" الفاصلة التي كانت آخر مسمار في نعش الامبراطورية الكسروية التي ما زال بعض أذيالها إلى الآن يحملون تجاه اليمنيين حقداً كبيراً. فبالإضافة إلى الفارسيْن المذكوريْن كان ثلثا جيش سعد بن أبي وقاص (الأنصاري) من اليمن ومعظمهم من حضرموت.[7]

---

[6] – والتي ما زالت تحمل نفس التسمية منذ ذلك اليوم، ويجاورها حي "مسيك" وحي "فروة" وكلاهما نسبة إلى الصحابي الجليل فروة بن مسيك. الذي كان ضد الأسود العنسي.

[7] – وفقاً لما يورد المؤرخ اليمني د.عبدالعزيز بن عقيل في كتابه "تاريخ حضرموت".

مثّل اليمنيون للدولة الإسلامية الوليدة في قلب الجزيرة العربية الهيكل الإداري والتنظيمي الذي لم تكن تمتلكه قبائل نجد والحجاز، كما زودوا الدولة الإسلامية بمقومات البناء الهيكلي والقاعدة المؤسسية للتوسع المتوازن رأسياً وأفقياً. على أن الباحث والمؤرخ اليمني محمد حسين الفرح، يفصِّل في سفره الكبير "يمانيون في موكب الرسول" أن اليمنيين أيضاً كانوا هم رماح الشوكة في دولة الفتوحات، حتى ليظنن المرء من كثرة الفاتحين اليمانيين أنه لم يتبق في اليمن يومها إلا الأطفال والنساء وضعاف القوم.

ومن يومها كان اليمن أحد أقطار الحضارة العربية الإسلامية الوليدة، وتشارك اليمنيون في ترسيخ دعائمها ومثلوا السواد الأعظم من قادة وجيوش الفتوحات التي امتدت شرقاً وغرباً.. ولهذا وقع اليمن فريسة للمشاريع السياسية الضيقة التي انحرفت به عن ركاب حقبة الازدهار العربي الإسلامي.. وكان لتلك المشاريع الصغيرة دور رئيس في تأجيل استعادة اليمن جولة حضارية جديدة يسهم من خلالها في تجديد الأرض وتقدم الإنسانية.

حقبة المشاريع الصغيرة

شرعية إلغاء الذات اليمنية

تنطلق الفلسفة التي قامت عليها دولة الهادي وأبنائه في اليمن على أحقية أبناء فاطمة، رضي الله عنها، بالحكم، وبالتالي فدولة الهادي (التي بدأت في صعدة عام 284هـ) انطلقت من شرعية دينية مغلوطة ذات منحى سلالي اعتمد في حشده للأتباع على "مظلومية آل البيت"[8] واتكأت على إذكاء الخلافات الداخلية بين اليمنيين والقضاء على ثقافة الروح الوطنية باعتبارها، من وجهة نظرهم، من ميراث الجاهلية!!

وللأسف لم يحدث هذا الهدم في بواكير الدولة الهادوية فحسب؛ بل امتد طيلة حكمها المتقطِّع حتى أيام بيت حميدالدين، ويذكر المؤرخ محمد بن علي الأكوع الحوالي[9]، أن عالم الآثار المصري البروفسور أحمد فخري كان زار اليمن للمرة الثانية 1949م وهاله ما رأى من هدم منظم لآثار مأرب وقال في حديث أدلى به لبعض أصدقائه : "ما هممت أن أقتل أحداً في عمري غير هذا الرجل المجرم عامل مأرب أحمد الكحلاني". يعلق

[8] – وأئمة آل البيت رضوان الله عليهم جميعاً براء من تلك النظرية.

[9] – في كتابه "اليمن الخضراء مهد الحضارة".

الأكوع: "وكان هذا الموظف الجاهل أزال عدداً كبيراً من المعابد والهياكل وحطم الرسوم والنقوش والكتابة بحفرها وكشطها تعمداً وحقداً[10]"!!

وكان ضرورياً في نظر الفلسفة الهادوية عزل اليمن عن محيطها العربي والإسلامي حتى لا يتأثر اليمنيون بالحراك السياسي غير المأهول بالدهشة والتبجيل للأسرة العلوية. ساعد في هذه العزلة حالة من الغيبوبة والإهمال طالت حواضر نجد والحجاز، بسبب مشاريع سياسية وكهنوتية مشابهة، ما جعل باقي أرجاء الجزيرة العربية كواقع سياسي راكد، تمثل عامل عزلة إضافي لليمن.

في غضون ذلك وعلى مدى قرون متتالية لم يهدأ الصراع في اليمن، ما جعل اليمن ينتقل من حقبة "اليمن السعيد" إلى حقبة "اليمن البعيد".

سيناريو التمزيق البريطاني المتوكلي

بسبب نظرية الخروج في الفكر الهادوي وبسبب عنصرية نظام الإمامة الهادوي ومذهبيته لم تستتب الأوضاع في اليمن؛ فكان يحرص على عدم بسط نفوذه على اليمن كافة. حتى لا يؤدي ذلك إلى اجتماع اليمنيين واتفاقهم عليه.

علماً أنه بمجيء الهادي في عام284هـ عرف اليمن أول إعلان انفصال، وذلك عندما أعلن الهادي انفصاله بصعدة، ثم وقع اليمن، بسبب نظرية

---

10 – محمد بن علي الأكوع "اليمن الخضراء مهد الحضارة" ص(180).

الخروج، تحت وطأة الكيانات الانفصالية المتعددة إلى درجة أن أحدهم قد يعلن نفسه إماماً على قرية أو اثنتين.

وقد بلغ هذا الوضع الفوضوي أوجه في منتصف القرن الثالث عشر الهجري حينما تداول الحكم ما يقارب عشرين إماماً في أقل من شهر. الأمر الذي دفع ببعض الهادويين إلى الاستنجاد بالأتراك العثمانين الذين دخلوا صنعاء في العام 1849م بدعوة من الإمام المنصور محمد بن يحيى. (11)

وهناك خطأ تأريخي يقع فيه الكثيرون حينما يحسبون مجيء الاستعمار البريطاني إلى عدن 1839م الموافق 1254هـ وكأنه بداية التشطير في اليمن على هيئة شمال وجنوب؛ إذ الأصح أن أحد الأئمة من بيت القاسم (الحسين بن القاسم) هو الذي سبق إلى إعلان الانفصال بعدن (1144هـ). الأمر الذي أفسح المجال للتشرذم ونشوء السلطنات والمشيخات التي عمق وجودها الاسمي الاستعمار البريطاني الذي قام بإضعاف كل تلك الكيانات وسلبها كل أسباب القوة حتى لا تسعى إلى طرده.

ومعروف أن الاستعمار لم تستتب له الأوضاع في عدن إلا بعد أن خاض معارك ضارية وغير متكافئة مع سلطان لحج (فضل العبدلي) الذي أبلى بلاءً حسنا. وبسبب شكيمة القبائل اليمنية في جنوب البلاد اكتفى الاستعمار بتواجده في عدن فقط، ولم يتسن له بسط هيمنته السياسية على مناطق جنوب وشرق اليمن إلا بواسطة الدس والخديعة وسياسة "فرق

---

[11] – لمزيد من الاطلاع حول تلك الحقبة انظر" خيوط الظلام- عصر الإمامة الزيدية في اليمن" للكاتب عبدالفتاح البتول. مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر.

تسد"[12]. ولذا فإن الاستعمار مثل الشق الثاني من مقص التشطير في اليمن.. وقد عمل بعد مجيئه على توثيق الروابط بالكيان الانفصالي الموجود في شمال اليمن والمتمثل بالإمامة التي أوشكت أن تموت بفعل الخواء الذاتي، لكنها استعادت شيئاً من الحيوية بعد مجيء الاستعمار وتحالفه مع الإمامة التي تكفلت بوأد أية محاولات تحريرية منطلقة من الشمال.[13]

علماً أن نظام الإمامة الانفصالي في شمال اليمن قد أعاق لعدة مرات فرصاً عديدة لتوحيد اليمن، قبل وبعد الاستعمار، منها ما يذكره المؤرخ محمد بن علي الأكوع الحوالي أن إمام صنعاء رفض في القرن التاسع عشر دعوة للوحدة تحت حكم الإمام تقدم بها وفد كبير من أعيان حضرموت. وهو الموقف ذاته الذي فعله الإمام يحيى في عشرينات القرن العشرين عندما رفض دعوة عبيدالله السقاف رغم أن الأخير كتب في الإمام قصائد عصماء

---

[12] – ما أدى إلى جعل المناطق الجنوبية والشرقية بيئة طاردة للسكان انداحت منها موجات الهجرة الجماعية عبر البحر إلى جنوب وجنوب شرق أسيا وشرقي أفريقيا وعبر البر إلى بقية أرجاء الجزيرة والخليج حتى وصل جنوب وشرق اليمن إلى الصورة السكانية الضئيلة قياساً بامتداده الجغرافي. تماماً كما حدث في الشمال الذي أنهكته الحروب وأدت إلى هجرات جماعية إلى الضفة الأخرى من البحر الأحمر. ومنها تنحدر فئة المولدين الذين عادوا أيام الرئيس الحمدي. علماً أن الاضطهاد ضد الأباضية في القرون الإسلامية الأولى ثم بعد ذلك بسبب مضاعفات فتوى العنصرية التكفيرية التي أصدرها الإمام المتوكل على الله اسماعيل (الذي تنسب إليه الدولة المتوكلية وصاحب كتاب "الدليل القاطع في جواز أخذ مال الشوافع") حدثت هجرات متوالية من حضرموت أسهمت بنشر الإسلام بالقدوة الحسنة في دول جنوب شرق أسيا وعلى رأسها اندونيسيا التي تعد الآن أكبر دولة في العالم الإسلامي من حيث عدد السكان.

[13] – يذكر أن العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى حققوا انتصاراً على البريطانيين خلافاً لسير المعارك في بقية أرجاء العالم والتي كانت لصالح دول الحلفاء على دول المحور، وتم لجيش علي باشا دخول منطقة الشيخ عثمان يوم الأربعاء 7 يوليو وكان بإمكان ذلك الجيش التقدم أكثر لولا أوامر من الباب العالي العثماني بالانسحاب الذي ترتب عنه قيام المملكة المتوكلية اليمنية في العام 1918م.

جمعها في ديوان "الإماميات"[14] ثم رفض الإمام يحيى في ثلاثينيات القرن العشرين؛ عندما رفض دعوة أخرى للوحدة يكون فيها إماماً لليمن كله..!! وهي التي تقدم بها سلاطين الجنوب إلى الإمام عبر السياسي والأديب التونسي عبدالعزيز الثعالبي. الذي فوجئ برد الإمام ووضع الإمام وعقلية الإمام. ووثق القصة كاملة في كتابه "الرحلة اليمانية".

وقد قام الفريقان (الإمامة والاستعمار) بخطوة جريئة كانا يظنان أنها ستمثل آخر مسمار في نعش وحدة اليمنيين. وهي ترسيم حدود دولية بين شطري اليمن وبموجب تلك الاتفاقية أصبح وكأن اليمن هو الجزء الجغرافي المحصور ضمن سيطرة الإمام بينما الجزء الواقع تحت الاحتلال يعد من ممتلكات المملكة المتحدة!!

في المقابل قام البريطانيون بعد اتفاقية الحدود مع الإمام بوضع مشروع سياسي وثقافي يهدف إلى بلورة هوية جديدة لجنوب وشرق اليمن؛ ضمن محاولة يائسة لشرخ هويته اليمنية وذلك عن طريق وضع مشروع اتحاد إمارات الجنوب العربي كما قام الاستعمار ببلورة كيانات سياسية وثقافية وإعلامية تتبنى تعميق مثل هذا الطرح، وربط مصالح هذه الكيانات به، وشجع على إصدار صحف عدنية يومية تعمل على ترسيخ صورة اليمن وكأنه الجزء الواقع تحت إدارة الإمامة بينما الباقي هو الجنوب العربي!! (15)

---

[14] – انظر: علي محمد عبده "لمحات من تاريخ حركة الأحرار اليمنيين. الجزء الأول الطبعة الأولى 2003.

[15] – تجد أحياناً من بين أخبار تلك الصحف أن السلطات في عدن قبضت على متسللين (يمنيين وصوماليين) مقيمين بصورة غير شرعية، وأنه قام بعضهم بالاعتداء على أحد المواطنين العرب، والمقصود أحد مواطني (اتحاد الجنوب العربي).. انظر: سعيد الجناحي "الاتجاهات السياسية للصحافة اليمنية وأخبار الكفاح المسلح في صحف عدن".

لكن مثل هذا الخطاب لم يتعد أفواه تلك الصحف ولم يتجاوز حدود مقراتها، بل أدى إلى ردة فعل حازمة من قبل اليمنيين شماله وجنوبه دفعتهم إلى إحياء الفكر الوحدوي اليمني وتعرية المشاريع التشطيرية التي كان يذكيها، كما أسلفنا، الإمام المغتصب لكرسي الحكم في صنعاء والمندوب السامي المغتصب لكرسي الحكم في عدن..! وعندها ربما كان الهاجس الوحدوي لدى الحركة الوطنية هو الذي أدى إلى التعجيل بضرورة تغيير نظام الحكم في صنعاء للتخلص من أحد أطراف المعادلة الانفصالية-وهذا ما حدث عام 1962م- التي سيسهل بعدها التخلص منه تنظيم الجهود والكفاح لإخراج الطرف الآخر وهو الاستعمار.

لم تكتمل القصة؛ فالحديث ذو شجون، وقبل أن نستكملها على هذا المنوال لابد أولاً أن نعرج على ظروف الثورة اليمنية سبتمبر وأكتوبر مع تسليط الضوء على المرحلة التي نشأ وصعد فيها الرئيس علي عبدالله صالح (موضوع تناولنا في هذا الكتاب)، مروراً بسنوات حكمه للشطر الشمالي ووصولاً إلى العام 90م عام تحقيق الوحدة اليمنية التي سيتسنى لنا عند الحديث عنها استكمال ما تبقى من هذه الحكاية.. وفقاً لمنهجية مقصودة للعثور على كافة الخيوط المنسية..

العهود الجمهورية
وصعود صالح

لبس بين مفهومي: الدولة والنظام

تخلط الكثير من الكتابات الصحفية بين مفهومي الدولة والنظام.. تماماً كما تذهب بعض الممارسات المعارضة لنظام الحكم إلى التعريض بكيان الدولة في خلط مشين بين المفهومين. فيما المعروف هو أن الدولة أمر متوارث رغم تعاقب أنظمة الحكم.. فمثلاً، حكم الفاطميون مصر وذهبوا كنظام ليحل محلهم الأيوبيون، وغربت شمس الأيوبيين لتشرق شمس المماليك، وبعدها جاء العثمانيون، فمحمد علي باشا، فالانجليز والحكم الملكي وصولاً إلى العهد الجمهوري الذي دشن 1952م.

تتغير أنظمة الحكم مع بقاء الدولة كمؤسسات تخضع لتغيّر المدراء والمسئولين والتسميات، ولكنها تظل موجودة، كوظيفة وكموظفين، ويظل خيط سميك من الخبرة السياسية والإدارية والاقتصادية والفكرية ممتداً بين الأجيال تتراوح استفادة الأنظمة المتعاقبة منه، بعضها يغذيه وبعضها يضعفه. كل ما في الأمر أن المصلين في يوم الجمعة يتفاجأون بأن الخطيب أصبح يدعو في نهاية الخطبة لولي أمر جديد.

هناك حالتان تستحقان منا التوضيح حتى تكتمل الفكرة: الأولى في العراق، حيث أن الأمريكان في غزوهم الأخير 2003م، لم يقوموا بتغيير

النظام العراقي فحسب، بل قاموا بهدم الدولة العراقية المتبلورة منذ قرون، تماماً كما فعل التتار 565هـ الذين لم يغيروا نظام الخلافة فحسب، وإنما أتوا على بناء الدولة من القواعد، وقطعوا أمشاج الخبرة المتوارثة، ودمروا مؤسسات الدولة، ودوائر المصالح، وأحرقوا الأرشيف والسجلات، وأعدموا الموظفين والخبراء، ورموا بالميراث البحثي والفكري إلى ماء دجلة.

الحالة الثانية في اليمن، حيث تعاقبت أنظمة حكم منذ ما يزيد عن عشرة قرون دون أن يخلف أي منها بناء دولة، إذ كانت حالة التناحر والاحتراب تحول دون استقامة الأمر لأي نظام حكم حتى لكأن جميع المدن اليمنية أصبحت في فترة ما عاصمة لكيان يسمي نفسه دولة. لكن أياً منها لم يتمكن من إرساء دولة، وبلورة تقاليد حكم.

من هنا وجد اليمنيون أنفسهم بعد 26سبتمبر1962م و30 نوفمبر 1967م، يحكمون على سبيل التجريب ويحاولون بلا (كتلوج) دولة ولا ذاكرة حكم، ولا مؤسسات ولا كوادر، ولا رؤى اقتصادية ولا موارد، لا أمن ولا جيش. ذلك أن فلسفة الحكم لدى الأئمة كانت تقضي بلا مأسسة الدولة وبلا تحديث النظام، وبلا تأهيل الشعب وبلا تنويع الموارد.. فضلاً عن نظرية الخروج بالسيف في الفكر الإمامي الزيدي التي تعد أحد شروط انتقال الحكم من إمام إلى آخر، ومثلت هذه النظرية آلية هدم فورية ليبدأ الكل مجدداً من الصفر ويغادرون دون أن يبارحوا دائرة الصفر!!

واستمر هذا الأسلوب من حكم الأئمة حتى أثبت عقمه ولا جدواه سواء عند الشعب أو حتى عند الأسر الهاشمية التي لها الحق في التداول الدموي للسلطة. ولهذا كان الهاشميون أنفسهم ضمن قوافل الثوار في الشمال.

الحرب الجمهورية الملكية التي استمرت من 62إلى1969م، جعلت هذه السنوات خالية من محاولات بناء دولة الشمال، ثم تبعات الوضع التشطيري والأزمة الاقتصادية في عهد الإرياني حالت هي الأخرى دون جعل السنوات السبع منذ مغادرة السلال 1967م، وحتى مجيء حركة 13 يونيو 1974م، حافلة بالمستوى المنشود والضروري لإرساء مؤسسات دولة، رغم أن هذه الفترة شهدت صياغة أول دستور يحتكم إليه اليمنيون منذ قرون. كما شهدت تأسيس أول مجلس نيابي وتقنين كثير من اللوائح المنظمة لشئون الدولة.

الطريق إلى الثورة

"مارست الحركة الوطنية اليمنية كافة أساليب التغيير ومرّت على أطوار تدرجاته، بدءاً بالنصح، مروراً بالمعارضة العلنية السلمية، وصولاً إلى الانقلاب، وانتهاء بالثورة، بما يشتمل عليه معنى الثورة من تغيير جذري للواقع المباد وبناء جذري للعهد الجديد.

وصول الحركة الوطنية إلى طور التغيير عن طريق "الثورة"، كان نتيجة لوصولها –في نضالها ضد المشروع (التشطيري) الإمامي– إلى مرحلة النضج، بعد أن اكتملت دراساتها ورؤاها حول عقم ذلك المشروع واستحالة تعديله أو التأثير فيه"[16]، وبعد أن توصلت إلى أن الإمامة "لم تكن أداة حكم صالحة، بل نكبة نكب بها شعب عربي مجيد أصيب أبناؤه بسبب أساليبها الغريبة الماكرة إصابات قاتلة في شخصياتهم ونفسياتهم وأخلاقهم وخصائصهم ومميزاتهم، حتى أنهم فوق هذا لم يستفيدوا دينياً من هذه الإمامة، بل أفسدت عليهم تعاليم دينهم وتقاليدهم وباتوا في حالة مزرية لا يمكن للعقل أن يتصورها". [17]

في خضم ذلك أعلن في عدن عن قيام حزب الأحرار اليمني في عام 1943م الذي أصدر صحيفة "صوت اليمن" ونجم عن هذا الحراك حركة 1984م التي قامت بتصفية الإمام يحيى ولم تستمر سوى بضعة

---

16 – كتاب "الزهر والحجر" عادل الأحمدي ص(91).

17 – كتاب "اليمن المنهوبة المنكوبة" الصادر عن حركة الأحرار عام 1945م.

وعشرين يوماً حيث استطاع ولي العهد أحمد إفشال تلك الحركة ونصب نفسه إماماً بعد أبيه..

بعد فشل حركة 48م تبلور العمل الثوري على كل الهيئات والصعد في الداخل والخارج، وقام المفكرون الأحرار بتوفير الأدبيات التنويرية اللازمة في معركة التحرر من الإمامة والاستعمار منها كتاب: "الإمامة وخطرها على وحدة اليمن" ورواية "مأساة واق الواق" وكلاهما للكاتب والشاعر محمد محمود الزبيري،" وكتاب "من وراء الأسوار" للمفكر محمد أحمد النعمان وكثير من الإصدارات التي تلت فشل ثورة 1948م ذلك الفشل الذي أدى إلى توجيه خطابهم نحو الشعب. كما قام الشعر والفن بدور كبير في معمعة التحضير للثورة؛ فكانت قصائد الزبيري ومحمد سعيد جرادة ولطفي جعفر أمان وعبدالله البردوني وابراهيم الحضراني وزيد الموشكي وعبده عثمان، سمفونية ثورية هادرة تجسدت، بعد ذلك، بأروع الألحان على حناجر المرشدي وأيوب طارش والآنسي.. وغيرهم. وصولاً إلى اللحظة اليمنية الفاصلة التي أسقط فيها تنظيم الضباط الأحرار بقيادة علي عبدالمغني نظام الإمامة في صنعاء والإعلان عن قيام نظام جمهوري برئاسة المشير عبدالله السلال الأمر الذي أتاح لثورة الكفاح المسلح ضد المستعمر أن تندلع في 14أكتوبر1963م وكلا الثورتين هما ثورة اليمنيين في الشمال والجنوب وليس كما رسخها الوضع التشطيري في العهود الجمهورية الذي أصبح بموجبه وكأن سبتمبر ثورة الشمال في حين أكتوبر ثورة الجنوب!!

تزامنت الثورة اليمنية مع أجواء ثورية عمت أرجاء الوطن العربي بسبب المد القومي الناصري وأجواء ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكان

"صوت العرب" يومها يلهج بالكلام الثوري الهادر المتدفق من حنجرة الزعيم المفاجئ جمال عبدالناصر، وهو يتحدث عن عزة العرب وقيامة العرب، ويسفّه الديكتاتوريات المحنطة والغازي الحقير.

كان الزعيم جمال عبد الناصر يدعو إلى المجد بلسان عربي مبين، ومن على رأس دولة محورية هي مصر، وكان العالم، يومها مفتوحاً على جميع الاحتمالات بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ولما تتشكل بعد ملامح النظام الدولي، ولا روائح الحرب الباردة. كانت لحظات عالمية تؤثر في جاهزيات الأفراد وتطلق عنان الطموحات وجسارة الأرواح. خصوصاً عندما يتضافر ذلك مع فورة القوة.. ورنين الشعار وموسيقى النشيد الوطني العاصف.

علي عبدالله صالح..

ظروف النشأة وملابسات الصعود

في تلك الأجواء الثورية دخل علي عبدالله صالح الجيش بالتحاقه بالمدرسة الحربية في العام 1958م، وعمره يومذاك 12 عاماً، وكان كغيره من أبناء ذلك الوقت، محتدماً بصوت العرب، ومعجباً بإيقاعات الرتب العسكرية والزي الموحّد والعرض المنسق، ولم يبلغ السادسة عشرة حتى فجر تنظيم الضباط الأحرار "دار البشائر" صبيحة 26سبتمبر1962م، وأصبح اليمنيون هذه المرة هم صانعي شعارات التحرر التي تُرى نتائجها الملموسة كأقوى ما يكون الحدث.

قامت الثورة ومعها قامت قيامة الحديث عن حق الشعب وقدرة الشعب وفردانية المواطن وأحقية الكل وأهمية الجميع... بموجب ثورة 26 سبتمبر 62م، يصبح بمقدور أي يمني أياً كان لقبه أو منطقته أو قبيلته أو وضعه المادي أن يصل إلى أعلى المناصب، وأن يطلع على أسرار الأمور وأن يصنع مجده ويعيد سدّه ويستعيد ما اندرس من حضارته، وما غفا من شعوره بالعزة والكرامة والقدرة على الفعل.

حينها كان علي عبدالله صالح في السادسة عشرة من العمر، وفي مثل ذلك السن وفقاً لعلماء النفس، فإن المرء أكثر ما يكون فريسة للمبادئ الجذابة والطموحات العالية والتمثل الصادق والشعور بالإمكان

والانشداه للبريق الرائج في الجو العام، والبريق السياسـي يومـذاك كـان نداءً هادراً للتحرر والقوة والفتوة والبسالة.

يتساقط الشهداء.. تفرض الساعات العصيبة نفسها على كل شـخص طموح أن يكون له دور تلقائي محتشداً فيه ضمن مشروع آسـر ومتفنناً في خدمته بطريقته الخاصة وإبداعه الذاتي.

لم يعد المذياع ذلك الذي يتحدث عن مولانا الإمام، يعقبه برنامج عن الألغاز والأحاجي، بل صار يتحدث عن مصـطلح جديـد اسمـه: الشـعب، الجمهورية، الثورة، اليمن الجديد، والوعد الأكيد..

لاشك أن كل هذا قد أثّر في علي عبدالله صـالح وفي غـيره ممـن كـانوا ساعتها شهوداً ضالعين في لعبةٍ غايةٍ في الخطورة والمتعة، حيث تعزز فرص السلامة مقدار الإيمان، وتزيد من جسارة الإقـدام. ويومـاً عـن يـوم كـانوا يشاهدون بأم أعينهم أن المشروع الجمهوري الجديد يزداد حضوراً، في نفس الوقت الذي تمسي فيه الإمامة الاستعلائية عهداً بائداً لن يعود.

هنالك، وفي ظل جو كهذا، عادة ما يلتقط ذوو النباهـة مـن معاصـري تلك الأجواء، الأساليب المواتية للحضور والترقّي حيث الجـدارة الفرديـة وإظهار موهبة اتخاذ القرار السريع الحازم، وكذا عناصر المباغتـة والمبـادرة.. أمور من شأنها أن تصنع مستقبل الأفراد المنضوين في معمعة الحاضـر وفي معركة الدفاع عنه، لأنه واقع يصب في مصلحتهم ومصـلحة غالبيـة أبنـاء الشعب، ولأنه أجدى لهم، إذ لا قداسة فيه للأشخاص وإنما للمبادئ والمثل التي تنفع الناس، كما تترتـب فيـه المكانـة علـى قـدر التضـحية والإيمـان بالشعب والإيثار للشعب.

هنالك نوع من الناس يأخذ الشعارات على محمل الجد.. خصوصاً حينما يتلقاها في أوج بريقها، وهو في سن اليفوعة التي تكثر فيها نسبة البراءة، ولما تتبلور بعد حظوظ النفس وتكتيكات الوصول والعداوات البلهاء والحسابات الضيقة.

هنالك نوع من الناس يأخذ الشعارات على محمل الجد، وأياً تكن تلك الشعارات، فإن هذا النوع يستفيد ولابد، من إيمانه الواضح بها وتمثله الطبيعي لها. وبالتالي تكثر فرص الاحتياج لمثل هؤلاء الأشخاص في مثل هكذا ظروف. (ثورة وحرب، صمود وإقناع، تمرس وسياسة، وقصائد وشهداء).

باعتقادي أن الثلّة التي استلمت الحكم في 13 يونيو 1974 كانت من هذا النوع، إذ أنهم لم يعيشوا في ظل العهد الإمامي مسافة زمنية تغرس بعض هالتها في قلوبهم، كما أن الواقع الدولي آنذاك، كان هو الآخر عاملاً مساعداً في تبني الشعارات بلا خوف، وفي إحراق المسافات بلا هوادة.

منذ الخمسينات بدأ التقاطب بين المعسكرين الشرقي والغربي، الاشتراكي والرأسمالي، يأخذ تبلوره الطبيعي ويؤثر على سياق الحياة الدولية. كان بمستطاع العالم الثالث يومها أن يتدلل، وأن يبوح بما يريد، وأن يحن إلى ما يعتقد، فكلا المعسكرين حريص على استقطاب دول العالم الثالث، واستمالتها إن لم يكن بشكل تحالفي فكري وسياسي وعسكري متكامل، فعلى الأقل سياسياً فقط. من هنا أمكن للمشاريع الوطنية والقومية أن تعبر عن نفسها بصوت عال، وأن تعمل بين الجماهير.. وكان لا يزال حينها لمأساة احتلال فلسطين وقيام الكيان الصهيوني 1948م أثره

في استنفار الجماهير وفي شحذ الصفوف بغض النظر عما أسفر عنه ذلك الشحذ.

كانوا في أواخر العشرينات وبداية الثلاثينيات من العمر، ووجدوا أنفسهم يتسلمون زمام بلد، وبطلب من كبار رجالاته. فوجدوا أنفسهم أمام شحنة مدوية من الثقة وتهيؤٍ ملائم من الشعب لكي يصنعوا "ما لم تستطعه الأوائل".

طبيعة العلاقة بين صالح والحمدي

قام الرئيس إبراهيم الحمدي بتعيين صديقه علي عبدالله صالح، قائداً للواء تعز، وهذا يعني الكثير.. كان اليمن الشمالي يتكون من رئتين: صنعاء وما يجاورها وصولاً إلى حدود المملكة، وتعز المدينة الثانية المحادة للجنوب والمطلة على مضيق باب المندب وجزء من حركة الملاحة في البحر الأحمر.

ويبدو أن تموقع علي عبدالله صالح قائداً للواء تعز في 27 أبريل 1975م.[18] كانت له قصة ما تندرج ضمن برنامج إحلال سلس من قبل قيادة حركة 13 يونيو لكوادرها ذات الثقافة السبتمبرية المتأثرة بفكر الثورة الناصرية محل الكوادر البعثية التي كان لها حضور مكثف في المفاصل العسكرية للدولة منذ حركة 5 نوفمبر 1967م التي سيطر فيها القاضي عبدالرحمن الإرياني وجناح البعث والمشائخ على السلطة مستغلين زيارة الرئيس السلال حينها إلى خارج الوطن.. ومن ضمن

[18] – تم اعتماد هذا التاريخ (27 أبريل) كيوم للجيش حتى عام 1990م ثم أصبح في دولة الوحدة "يوم الديمقراطية" وأجريت فيه ثلاث انتخابات نيابية في الأعوام (1993، 1997، 2003م).

الكوادر العسكرية البعثية لنظام 5 نوفمبر في صنعاء درهم أبو لحوم، قائد لواء تعز الذي أزاحه الرائد علي عبدالله صالح بحركة انقلابية بالاتفاق مع الرئيس الحمدي الذي خلع يومها على صالح لقب "تيس الضباط".

منصب كهذا لا يعطى إلا لشخص شديد التطابق، مضمون الولاء، مأمون النكث صاحب جرأة وقرار، وذي دراية وفراسة. منصب قائد اللواء (القائد العسكري للمحافظة) هو الأهم في علم الحكم حينها من منصب المحافظ، ويعد بمثابة صمام الأمان، ومستحيل في كل دول العالم أن يخضع منصب كهذا للانتخاب، أو يهدى لمجرد المحاباة.

كانت الثلة التي تولت الحكم في 13يونيو على قدر كبير من التفاهم والتواد، وأضيف هنا أن علاقة من نوع خاص كانت تربط صالح بالحمدي، يدل على ذلك عدة أمور منها -علاوة على ما سبق- أن علي عبدالله صالح كان أحد عشرة أشخاص يمثلون مجلس القيادة السرّي والأهم في عهد الحمدي، وهذه إحدى الحقائق التي لم تخرج حتى الآن.

السعي لاستقلالية القرار في شمال اليمن..

أدرك رموز حركة 13 يونيو أنهم ليسوا بصدد ترسيخ دعائم نظام حكم، بل ترسيخ دعائم دولة وبالتالي شهد اليمن الشمالي وحتى الجنوبي في ظل عهد الرئيس إبراهيم الحمدي بداية لنقلة تنموية حقيقية وملفتة، وبدأت أدبيات فكر الثورة السبتمبرية وأهدافها تتحول إلى مفردات أداء وأناشيد غناء وتضافر فيها المجهود الشعبي مع القيادة الشابة.. كما بدأوا يفكرون بهمّ كان حينها يقتلعهم من أماكنهم وهو مسألة بقاء

القرار اليمني في الشطر الشمالي بيد الأشقاء والأصدقاء، انتقل من جيب مصر إلى إبط المملكة، والكل يستكثر على اليمنيين السيادة لهم في بلادهم، وأخلصية القرار، وكذلك كان القرار في الشطر الجنوبي متروكاً لرياح المعسكر الاشتراكي متماوجاً مزاجه بين "موسكو" و"بكين".

في نظر مثل تلك الشبيبة لا أثر للعوائق الماثلة على إمكانية تحقيق الوحدة؛ إذ أن من شأن شعور كهذا يخامر اليمنيين الذين لأول مرة يعود لهم حكم بلادهم منذ قرون من الإمامة والاستعمار والتمزق والسلطنات والتخلف والجهل، أن يصنع فاعلية مضاعفة وإقداماً مؤازراً، رغم أنه لم يتم جيداً اختبار الخطوط الفاصلة بين الإقدام والتهور والمجازفة قياساً بالظروف المحيطة والإمكانيات والوعي والشوكة.

ولهذا معروف أن الجارة الشقيقة (المملكة العربية السعودية)، التي فرحت بانقلاب 5 نوفمبر على المشير عبدالله السلال وصعود الرئيس عبدالرحمن الإرياني الذي وقعت معه المصالحة مع الملكيين 1970، واعترفت في عهده بالجمهورية، سرعان ما اختلفت معه، بل وتخوّفت من أن يصبح عهده فرصة توغل اليسار المعادي لها واقترابه من حدود المملكة. ولهذا كان بمستطاعها أن تجعل الأوضاع أقل سوءاً مما كانت عليه في أواخر عهد الإرياني، لكنها يئست منه أصلاً؛ وباركت صعود الحمدي ونسقت معه ودعمته، وكسلفه –حسب تقديري– كان صادقاً مع المملكة، لكنه يتفاجأ أن الأشقاء لأسباب متعددة يتجاوزون حدود الدعم والأخوة إلى إملاءات تجعل الرئيس أشبه بموظف لديهم وذلك عن طريق تدخلهم في التعيينات و"تكويشهم" على ملف العلاقات الخارجية، بحيث لم يكن الشطر الشمالي(قبل 13 يونيو 1974م) يتنفس في علاقاته الخارجية إلا

عبر رئة المملكة، ولا يتحدث إلا بلسانها، ولا يوافق إلا بعد أن تهز رأسها بالموافقة، ولا يعترض إلا بعد أن تعترض. (وهو الأمر الذي عاد بقوة أثناء فترة الرئيس الغشمي).

وكما هي عادة جميع الرؤساء اليمنيين في الشطر الشمالي (كونه كان واقعاً تحت تأثير الجار الأقوى والحليف للمعسكر الغربي) عادة ما يفرون من وطأة النفوذ السعودي إلى رحاب الأخوة الوطنية ومد حبال التفاهم مع الشطر الجنوبي.

حدث هذا أيام الإرياني وبلغ ذروته أيام الحمدي وسنشرح فيما بعد كيف تكرر بحذافيره في عهد علي عبدالله صالح. إلى أن تكلل بقيام الوحدة 22مايو1990م.

ويرجح البعض أن الغشمي لو حكم فترة أطول لكان خرج أيضاً من ربقة الوصاية السعودية بذات المنوال ونفس الدراما. فيما يذهب آخرون إلى أن الغشمي كان بالفعل بدأ تواصلاً حثيثاً مع سالمين ويذهبون إلى أن ذلك هو سبب مقتل الرجلين في قصة واحدة[19]..

---

19 – ومن هؤلاء الذين يرجحون الرؤية الأخيرة الأستاذ عبدالله البردوني في كتابه "اليمن الجمهوري" ضمن ما يسميه بفترة التنسيق الغشمي الربيعي.

بدا الحمدي فطناً وطموحاً أكثر مما يتحمله جيران اليمن، وحداثة عهد اليمنيين بالحكم وبالدولة.. سرعان ما خطف أنظار الجنوب إليه وأرسى نموذج أداء حكومي ملتزم بالقانون، وأداء تعاوني متشوق للبناء والتنمية، خصوصاً بعد أن ذاق الجميع ويلات وعواقب الفساد المالي والإداري في أواخر عهد الإرياني، كما مدّ الحمدي شباكه إلى القرن الأفريقي ليشد عضده بتحالف إقليمي يحد به من سباق التواجد الأمريكي السوفيتي في مياه البحر الأحمر. وأقنع الأشقاء في المملكة أنه لاحتواء نظام الشطر الجنوبي الموالي لموسكو، بضرورة أن يتزود جيش الشطر الشمالي بصفقة أسلحة أمريكية تمولها المملكة.

قدم الحمدي للأشقاء في المملكة مواصفات الصفقة وعدد الآليات المطلوبة وبدورهم قام السعوديون بتقديم الطلب للأمريكان، ليجيء الردّ الأمريكي كما يلي: "قلنا لكم أننا نريد يمناً شمالياً قوياً وليس يمناً شمالياً شديد القوة".

كان الحمدي يمتلك مشروعاً تحديثياً متكامل الأوجه يستهدف اليمن أرضاً وإنسانا ومضى في تحقيقه بوتيرة عالية.. لهذا بقدر حجم وبريق الرجل كان حجم المؤامرة لإسقاطه. ولابد أن أحمد الغشمي بعد قتله الرئيس الحمدي قد عاش شهور حكمه القليلة مرعوباً مرتبكاً أشد ما يكون، ذلك أن التهمة ثابتة عليه كما أن شعبية سلفه الحمدي لم يسبق وأن حصلت لرئيس قبله، وكان نجمه لم يزل إلى صعود، ضف عليه مجموع

القيادات التي كان للحمدي فضل وصولها إلى ما هي عليه من المناصب؛ علاوة على انتسابه في 1975 للتنظيم الوحدوي الناصري، الذي وجد في الحمدي ناصراً جديداً، ووجد فيه الحمدي طاقماً مدنياً وإعلامياً وعسكرياً ملائماً يستعين به في معاركه ضد المناوئين والخصوم.

المعروف أن وتيرة الخطوات باتجاه الوحدة كانت وصلت درجات حاسمة في التقدم في أواخر حكمه، والمؤكد أنه إنما اغتيل في 11 أكتوبر بالتحديد، للحيلولة دون ذهابه إلى عدن في 14 أكتوبر، وإعلانه من هناك، كما كانت الأنباء، عن مفاجأة وطنية كبيرة. (وسنأتي على ذلك في الباب القادم بشيء من التفصيل).

أحمد الغشمي.. شهور مدججة بالسخط والقلاقل

كان خبر استشهاد الرئيس الحمدي صدمة كبيرة للشعب اليمني شماله وجنوبه وتزامن مع أيام غزيرة المطر متوالية الهطول حتى لقد قيل: "إن السماء بكته"، وانداحت العاطفة الشعبية تستذكر خطابات الحمدي وتنظر بعين النقمة والمقاطعة لنائبه الذي أصبح خلفاً له.. أحمد الغشمي. "لهذا فقد كان لهذه المأساة تداعياتها التي لم تجعل الغشمي يهدأ لحظة واحدة، فتجلت منذ اليوم التالي لبداية رئاسته، وذلك في المظاهرة الجماهيرية التي رافقت تشييع جثمان الحمدي في 13 أكتوبر والاتهام الجماهيري الصريح للغشمي باغتيال الحمدي، وقامت وحدات من

القوات المسلحة والأمن والمطافئ بمطاردة المواطنين في شوارع صنعاء طيلة ذلك اليوم"[20]

كانت المرة الأولى التي يراق فيها دم وتنجح فيها محاولة اغتيال؛ إذ منذ العام 1948م انتقلت السلطة في شمال اليمن بين إمامين وقامت ثورة وتولى ثلاثة رؤساء دون أن يقتل رأس النظام. ولذا فإن الأشهر التي قضاها الغشمي في السلطة شهدت قدراً غير مسبوق ولا ملحوق من القلاقل والتمردات على النحو التالي:

"أعلنت الجبهة اليسارية المدعومة من عدن إعادة نشاطها المسلح الذي تصفه صنعاء بالتخريب، والذي كان قد توقف في عهد الحمدي، فعاد النشاط المسلح للجبهة في المناطق الوسطى بذريعة إسقاط نظام الغشمي المتهم بالتآمر وقتل الحمدي وإجهاض الوحدة اليمنية وشملت العمليات المسلحة للجبهة بعض المناطق في كل من محافظات إب، البيضاء، تعز، ذمار، صنعاء، مأرب، صعدة. وتم عقد مؤتمر شعبي بصعدة في مارس 78م دعا إلى العمل لإسقاط نظام الغشمي. وكان الضابط زيد الكبسي حاول تصويب مسدسه لقتل الغشمي داخل مبنى القيادة العامة بعد مقتل الحمدي بعدة أيام، ففشلت تلك المحاولة وتم قتل من قام بها، وأخذ الغشمي يحيط نفسه بحراسة شديدة.. وقام اللواء الأول المرابط في منطقة عمران بإعلان مناهضته للغشمي، وقاد الرائد مجاهد القهالي ،وهو من أنصار الحمدي، أعمالاً مسلحة وتحركات ضد النظام منذ فبراير ومارس 78م بتلك المناطق.. وتحركت وحدات من قوات العمالقة المرابطة في ذمار باتجاه

---

[20] – محمد حسين الفرح كتاب "معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن 1962–1999م" وكالة الأنباء اليمنية (سبأ).

العاصمة صنعاء، وكان تحركها غير منظم وغير مخطط، وهربت وحدات من العمالقة إلى الشطر الجنوبي تعبيراً عن معارضتها للغشمي. كما قاد الرائد عبدالله عبدالعالم تمرداً عسكرياً في منطقة الحجرية بتعز بعد الغاء مجلس القيادة وتنصيب الغشمي رئيساً للجمهورية في أواخر أبريل وبداية مايو وتم إخماد التمرد وانتقل عبدالله عبدالعالم للإقامة في الشطر الجنوبي.

ويمكن القول ان انفجار كل تلك الأحداث والمعارضات المسلحة وغيرها ضد حكم الغشمي إضافة إلى التوتر والخلاف مع تيار المشائخ بقيادة الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر أثار قلقاً عميقاً في دوائر خارجية، وكانت زيارة وفد عسكري سعودي عال المستوى لصنعاء وتوطيد العلاقات مع الغشمي في مارس وإبريل نوعاً من التعبير عن القلق ومن محاولة دعم الغشمي لكبح جماح اتصالات بدأت بين الغشمي وسالم ربيع" [21].

توجس الغشمي من علي عبدالله صالح

على رغم ما سبق، فقد تصرف البعض بحكمة وسلموا مقاليد الأمر للرئيس الغشمي على مضض، وذلك للحيلولة دون أن يتطور الأمر إلى مجازر بين وحدات وكتائب الجيش وصراع قد يصل إلى المدنيين (كما حدث مثلاً بعد ذلك في 13 يناير 1986م في الشطر الجنوبي)، وربما كان ذلك موقف علي عبدالله صالح رغم علاقته الحميمة بالحمدي.. ليس هذا

[21] – المصدر نفسه.

فحسب، بل كان صالح على رأس حملة تأديبية لقائد المظلات عبدالله عبدالعالم الذي قاد في منطقة الحجرية بتعز تمرداً غير محكم ضد الغشمي، وكان الموقع التنفيذي لـ علي عبدالله صالح كقائد للواء تعز يقتضي منه إخماد هذا التمرد.. ونجح في ذلك. قد يعزى مثل هذا التصرف إلى سلوك الجندية عند علي عبدالله صالح والتزامه بأوامر قادته بغض النظر عن طريقة صعودهم، تماماً كما كان شأنه أيام السلال والإرياني والحمدي.

مع ذلك فإن الغشمي ظل متوجساً من صالح (وهذا الكلام.. أسوقه هنا ضمن أحد السيناريوهات الغامضة لتلك السنوات الملفعة بالتضارب) أقول: ظل الغشمي متوجساً من صالح بسبب ما يعرفه من حميمية العلاقة بين صالح والحمدي، فقام حينها باتخاذ عدة تدابير احترازية منها عدم مجيء صالح من تعز إلى صنعاء إلا بإذن، وكذلك شرع الغشمي في "قصقصة" بعض القيادات العسكرية المقربة من علي عبدالله صالح، بإصدار قرارات تعيين تبعدهم عن مركز الحكم (العاصمة) إلى مناطق بعيدة مأمونة. كما حدث مع القيادي في الفرقة الأولى علي محسن صالح؛ الذي صدر له قرار تعيين في الحديدة، ولم يكد الرجل يتهيأ للانتقال إلى الحديدة بموجب القرار حتى وصلت الحقيبة المفخخة من عدن. التي أودت بحياة الرئيس الغشمي بعد أقل من تسعة أشهر على مقتل الرئيس الحمدي.

ثمة قصة أخرى تعزز ما كان من أمر ارتياب الغشمي من علي عبدالله صالح، سمعتها من مصدر مقرب من الأخير، ضمن مسلسل كان يريد به الغشمي التخلص من كل أصدقاء الحمدي، مفادها أن الغشمي قام باستضافة صالح بمنزله بـ"ضلاع" إحدى ضواحي العاصمة، في أواخر

شهور حكمه ودبر له كميناً في طريق عودته بعد العشاء إلى صنعاء. غير أن صالح بحدسه القوي وربما أيضاً بسبب إشارة من أحد الضباط المحبين له والعارفين بأمر الكمين، نجا بحيلة ذكية وهي أنه حينما خرج من المقيل لم يستقل سيارته الخاصة؛ بل طلب من سائق الرئيس الغشمي أن يقوم بإيصاله بحجة أن سيارته عالقة بين سيارات أخرى لم يزل أصحابها داخل المقيل. وعلى كل حال، كانت الفترة من مقتل الحمدي وحتى ما بعد صعود علي عبدالله وعبدالفتاح اسماعيل فترة عصيبة جداً على اليمن شماله وجنوبه، اغتيل خلالها رئيسان في صنعاء ورئيس في عدن. حتى تصلب الذعر في عروق الناس وباتوا خائفين مما هو أسوأ.

صالح يدفع باتجاه انتخابه رئيسا

عندما قتل الرئيس الحمدي كان يمتلك نظامه رجلاً ثانياً هو نائب الرئيس(أحمد الغشمي)، لكن بعد مقتل الغشمي بدا الأمر مربكاً وكان لافتاً بالفعل أن الرجل الذي بدا الأقدر على تفهم الأولويات ولملمة الأمور بأعصاب حازمة ومبادرة واثقة هو قائد لواء تعز عضو مجلس القيادة السري أيام الحمدي، صاحب أكبر شعبية بين الضباط، وصاحب سجل خال من الثارات، وبالتالي فرض اسم علي عبدالله صالح نفسه رابع ثلاثة شكلوا مجلس قيادة مؤقت.[22]

[22] – ويقال أن أول من رشحه ليكون ضمن مجلس القيادة المؤقت هو نائب رئيس هيئة الأركان عبدالعزيز البرطي ثم تتالت تزكيات الحضور في أول اجتماع لمجموعة كبيرة من الضباط والمسئولين يوم مقتل الغشمي.

وكان مجلس القيادة المؤقت يتكون من رئيس مجلس الشعب التأسيسي عبدالكريم العرشي، وعلي صالح الشيبة رئيس هيئة الأركان العامة، وعبدالعزيز عبدالغني رئيس مجلس الوزراء، وكان صالح يطرح بإلحاح مقترحاً بضرورة اختيار الأخير (عبدالعزيز عبدالغني) رئيساً للجمهورية، بيد أن عبدالغني كان زاهدا في المنصب في حين كانت اللحظة تتطلب رئيساً عسكرياً تحسباً لأي مواجهات مع الشطر الجنوبي جراء قصة الحقيبة المفخخة وخوفاً من استغلال عدن للربكة الحاصلة في صنعاء بالانقضاض على مناطق واقعة ضمن نطاق الشطر الشمالي. (كما حدث بالفعل بعد ذلك). وأيضاً لأن الجو السياسي في صنعاء ووضع الدولة يتطلب هو الآخر شخصية تقوي جانبها التنفيذي كرئيس دولة بموقعها العسكري كقائد مطاع حتى لا تنتثر الأمور.

كانت المملكة العربية السعودية تراقب المشهد عن كثب وتدرك هي الأخرى أن اليمن الشمالي أحوج ما يكون لشخصية تتمتع بالصفات سابقة الذكر، وتدرك أن الرياح تصب في صالح سفينة الرائد علي عبدالله صالح الذي تمت ترقيته إلى رتبة المقدم عقب اختياره عضواً في مجلس الرئاسة المؤقت ونائباً للقائد العام ورئيساً لهيئة الأركان العامة. لهذا كان عليها ألا تقف في المكان الخطأ رغم وجود شخصيات يمنية معروفة بحرصها على العلاقة النموذجية بين اليمن والمملكة أمثال الشيخ عبدالله ابن حسين الأحمر والذي كان يدفع باتجاه اختيار رئيس مدني وليس عسكرياً، ولا يفتأ بين الحين والآخر تقديم المقترحات بأسماء مدنية لتولي منصب الرئاسة.

وكان سبب موقف الشيخ الأحمر كما يذهب المؤرخ محمد حسين الفرح هو نكوص الغشمي عن الخطوات الديمقراطية التي أنجزها الرئيس

الحمدي والمتمثلة بإنشاء لجنة عليا للانتخابات تتكفل بإجراء انتخابات برلمانية مباشرة. غير أن الغشمي عوضاً عن ذلك قام بتعيين مجلس الشعب التأسيسي بغير الانتخابات المباشرة رغم حرصه على احتواء المجلس كافة الشرائح المجتمعية وكافة الأطياف السياسية وإن لم تكن التعددية معلنة آنذاك.

والآن، وبعد ثلاثين عاماً على ذلك اليوم الذي انتخب فيه مجلس الشعب التأسيسي علي عبدالله صالح رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للقوات المسلحة في 17يوليو1978، يبدو من المهم إيضاح بعض الأمور التي حاولت الكتابات تصويرها بمثالية مفرطة. حيث أن التقدم لمنصب الرئاسة كان بالفعل أمراً يبعث على الخوف من التصفية؛ لكن ذلك لم يكن يعني على الإطلاق أن صالح لم يدفع بالأمور لصالحه، بل قام بذلك بدهاء كبير –حسب ترجيحي– مستعملاً أنواعاً شتى من الضغوطات والإغراءات والاقناعات وذلك خلال 23 يوماً هي المدة الفاصلة بين مقتل الغشمي وانتخاب علي عبدالله صالح رئيساً.

ويبدو جلياً أن صالح كان يدرك يومها أنه الوحيد المؤهل لإدارة دفة الأمور. خصوصاً وأن عدداً من الضباط الموالين له كانوا يمسكون بزمام الألوية العسكرية. يتضح ذلك من الاجتماع الأول لمجلس القيادة والذي قال فيه علي صالح الشيبة أنه لا يوجد شخصية عسكرية مؤهلة للأخذ بزمام الأمور، فكان أن رد عليه علي عبدالله صالح بأنه يوجد مثل هذه الشخصية.

إلى ذلك يذكر الشيخ سنان أبو لحوم، في مقابلة صحفية له مع إحدى الصحف الإماراتية العام 2007م، أن صالح بدا حريصاً ومنذ الأيام الأولى لمقتل الغشمي على أن يقود البلاد وهو المؤدى ذاته الذي يفهم من كلام

الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر في برنامج زيارة خاصة في قناة الجزيرة 2005م والذي قال فيه إن صالح قال له أريد أن أحكم ولو حتى لمدة أسبوع لكي أنتقم من قتلة الغشمي!!

وعموماً بدأ الرئيس حكمه والجميع مشفق عليه وخائف على اليمن، لهذا تعاون الجميع معه بكل صدق وأدى كلٌ دوره بكل مثابرة وإخلاص، ليشهد اليمن الشمالي سنوات ذهبية تكللت في العام 1990م بإعادة توحيد اليمن برئاسته.

سنوات الإثبات

كان سهلاً على من شهد تلك الفترة التي صعد فيها علي عبدالله صالح إلى كرسي الرئاسة أن يكون متوقعاً بكل سهولة أن اجتيازه ثلاث سنوات في كرسي الحكم معناه أنه من الطبيعي جداً أن تدوم له ثلاثة أو أربعة عقود ما دام يعيش في حفظ الله.

بعد صعود صالح كان أمامه عدة ملفات ملحة أولها: التصرف فيما يخص تداعيات تورط نظام الشطر الجنوبي في مقتل الغشمي. وثانيها: تأمين موقع الرئيس وسلامته الشخصية وهو المدخل السليم والواقعي لاستقرار الأوضاع. وثالثا: ضعف الجيش وتشظياته الولائية بين الأحزاب.

رابعاً: كسب كل الشخصيات التي وقفت ضده، أو لم تكن مقتنعة بتوليه منصب الرئاسة، وضرورة إحداث حالة اصطفاف وطني عريض يقدم مصلحة اليمن على جميع المصالح الحزبية والشخصية الضيقة.. إضافة إلى الملف المعروف وهو قضية استقلال القرار اليمني وتوثيق عرى اليمن بمحيطه العربي والأجنبي بما يخدم استقرار اليمن ويدعم استتباب الأمور ويوفر للرئيس احتفاء دولياً ومساندة واسعة.

هذه ملفات ملحة يسهل بعد معالجتها أو معالجة معظمها التفرغ لإحداث قفزة تنموية في البنى التحتية للبلاد من طرق وتعليم وصحة

وكهرباء. خصوصاً وأن الدولة لم تزل تجابه معضلتها العريقة المتمثلة في أنه لا يوجد بها مؤسسات دولة ولا دوائر حكم ولا قاعدة بيانات ولا بسط نفوذ على كافة أرجاء البلاد.

وبسبب ما ذكرناه آنفاً من أن الجميع كانوا مشفقين على صالح عند توليه الحكم، فقد اضطلع كلٌّ بدوره ليجدوا أنهم يعملون في ظل شخصية قيادية متقدة الذكاء تتمتع بنشاط دائب وإلهام حثيث بالحلول. وقدرات في الإقناع والتوازن ومد حبال العلاقات المتوازنة مع الخارج.

إن المتأمل في عيني الرئيس علي عبدالله صالح في اللحظات التي أعلن فيها القاضي عبدالكريم العرشي فوزه بثقة مجلس الشعب التأسيسي، يدرك جيداً أن الرجل يومها لم يكن محتفياً باللحظة ولم يتملكه الزهو أنه أصبح رئيساً؛ بل كان يمعن ملياً فيما بعدها. على أن الدلالة الأوضح من ملامحه يومذاك تؤكد إدراكه حجم المأساة التي نكبت بها اليمن بمقتل الحمدي ثم الغشمي وسالمين وكان هذا الملف يومذاك لم يزل مفتوحاً..

وعموماً: حدثت حرب صغيرة بين الشطرين في فبراير 1979م استمرت 5 أيام أحرز فيها نظام الجنوب تقدماً عسكرياً في خمسة محاور هي: " قعطبة، دمت، بيحان، مكيراس، حريب" سرعان ما احتواه صالح بنصر سياسي عن طريق جولة عربية عاجلة شملت العراق وسوريا والأردن، ونتج عنها مجيء لجنة من الجامعة العربية توسطت بين الجانبين عززت مكانة صالح كزعيم مسالم يحب الانتماء لمحيطه العربي ويعمل على تفعيل الجامعة العربية ويؤثر حقن الدماء. وبذات الأسلوب مد صالح حباله شرقاً وغرباً. فاستطاع بداية أن يكسب ود موسكو بصفقة سلاح بقيمة 750

مليون روبل (ما يعادل مليار دولار) أملاً في ألا يكون السوفيت محرضين لنظام عدن على نظام صنعاء.

في ذات الوقت الذي تعامل فيه بحكمة في نقل ملف العلاقات اليمنية بالخارج من المعبر السعودي إلى التواصل المباشر مع المحيط العربي وكذا البيت الأبيض الذي تكلل في العام 1986م بزيارة نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب إلى صنعاء[23]. وقد قام صالح بتحقيق هذا الهدف دون أن يثير حفيظة السعوديين وبشكل سلس ومتدرج، وكان يبعث لهم حينما يزور بلداً ما برقية بمناسبة مروره في أجواء المملكة تحمل أصدق عبارات الأخوة والحرص على مصالح المملكة والعلاقة المتميزة معها. وباعتقادي أن صالح نجح في هذا الملف لأنه تفهم جيداً طبيعة الدواعي التي كانت تجعل الأشقاء في السعودية حريصين على اليمن حد التدخل. وذلك لمعرفته أن الأشقاء في المملكة كانوا يخشون من أن يغدو اليمن الشمالي على غفلة منهم موئلاً لأية حركة معادية للسعودية. خصوصاً بعد أن شهدوا حالة الازدهار السريع في الطيف السياسي وخصوصاً التيار اليساري أيام القاضي الإرياني. علاوة على أن اليمن الجنوبي يقع في قبضة اليسار المعادي للمملكة، كما أنهم لم يكونوا يثقون بقدرة وكفاءة النظام الحاكم في صنعاء على التكفل بذلك بمفرده وهذا ما عمل صالح على تأكيده لهم، بمعنى أنه وكأن لسان حال صالح كان يقول لهم أن بإمكان اليمنيين أن يتولوا أمرهم بكفاءة وبما يعزز أمن اليمن والمملكة، وعليها أن تثق بذلك. وبإمكان اليمنيين أن يمدوا جسور علاقاتهم بأي من دول العالم

---

[23] – جاءت الزيارة على إثر اكتشاف النفط في مأرب، وفيها صرح بوش بأن العلاقات اليمنية الأمريكية قد دخلت طوراً جديداً ومباشراً.

دون أن يكون ذلك على حساب المملكة، وهذا ما تحقق بالتدريج وإن لم يكن باقتناع تام من قبل الأشقاء في المملكة في بداية الأمر.

علماً أن صالح قام قبل إعلان الوحدة بزيارة لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز (رحمه الله) في حفر الباطن وتحديداً في فبراير 1990م.. بهدف طمأنة السعودية من الوحدة، وقام بإقناع الملك بأنه بالوحدة وحدها يمكن أن يغلق ملف الحدود، لأن الملف سوف يخضع للمزايدة في حال حدوث أي اتفاقيات شطرية أحادية مع الجنوب أو الشمال. ورويداً رويدا وصل صالح درجة الاستقلال التام بالقرار اليمني بحكمة وأناة مستفيداً من الضربة الفادحة التي دفعها أسلافه في هذا الملف!!

انقلاب الناصريين ضد عبدالله الأصنج ومحمد خميس!!

بعد أكثر من 80 يوماً تقريباً على انتخاب علي عبدالله صالح وتحديداً في 15 أكتوبر 1978م، وبينما كان يقوم بزيارة داخلية لمحافظتي الحديدة وتعز حدثت محاولة انقلابية فاشلة تبناها الناصريون. وكان لتلك المحاولة وما تبعها من إعدامات لبعض مدبريها أثر بالغ في تعزيز الاحتياطات الأمنية لموقع الرئيس، وكذا حدوث شرخ ما كان الجميع بحاجة إليه، رغم أن الرئيس حرص منذ البداية على كسب التيار الناصري.. بل كان محسوباً عليهم وفق الكثيرين، ومنهم، الكاتب والمؤرخ محمد حسين الفرح الذي يقول: "كان علي عبدالله صالح ينتمي فكرياً إلى فكر ومبادئ وأهداف ثورة 26 سبتمبر 1962م المرتبطة بالفكر القومي العربي الناصري، وتم

تعيينه قائداً للواء تعز في عهد الحمدي 1975/4/27م فكان ممن ساهموا في إرساء دعائم وإنجازات حركة 13 يونيو، وكانت له علاقة متميزة بمسئولي فرع التنظيم الناصري بتعز (عبداللطيف محمد علي) وبعد انتخابه رئيساً للجمهورية التقى في منزله بشعوب – صنعاء مع قيادة التنظيم الناصري (الأمانة العامة واللجنة التنفيذية)".

ويذكر أنه تم في ذلك اللقاء تطابق وجهات النظر بين الرئيس والناصريين في كثير من القضايا ومن بينها أن الخطر الحقيقي يتمثل في بقايا التيار الإمامي والبعثيين وبالتالي لا يعتبر الفرح أن انقلاب 15 أكتوبر كان مقصوداً به علي عبدالله صالح، بل ذهب إلى إمكانية تكييف ذلك الانقلاب وتصويره على أنه "قام به طرف في السلطة (الناصريون) ضد طرف آخر مغاير لتوجهاتهم ومؤثر على سيرورة الأمور (المقصود به محمد خميس وعبدالله الأصنج). بدليل أن الرئيس علي عبدالله صالح أصدر قراراً بالعفو العام عن الذين شاركوا في محاولة 15 اكتوبر الانقلابية؛ حيث تزامن إصدار قرار العفو مع قرار إزاحة محمد خميس من رئاسة الأمن الوطني في 21 مارس 79م وإزاحة عبدالله الأصنج من وزارة الخارجية". [24]

---

[24] – كتاب "معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن 1962–1999م"، الصادر عن وكالة الأنباء اليمنية سبأ، ص(58).

ولعل من أبرز الملفات التي جابهت الرئيس صالح بعد توليه الحكم هي الهجمات التي كانت تقوم بها ميليشيات الجبهة الوطنية الديمقراطية ذات التوجه اليساري والمكونة من فصائل قومية شمالية تبنت النهج الماركسي وكانت مدعومة من بعض أجنحة الحكم في نظام عدن وكانت تهدف إلى إسقاط نظام صنعاء بالتوازي مع برنامج ناجز للتغيير الاجتماعي ودموية فائضة لتنفيذ الأهداف. وكان نشاطها المسلح بدأ في عهد الإرياني تم توقف أيام الحمدي ليعود أيام الغشمي وبدايات عهد علي عبدالله صالح وتوقف بعد اتفاق الكويت الموقع بينه والرئيس عبدالفتاح اسماعيل برعاية أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح في مارس 79م ولكنها عادت بعد تولي علي ناصر محمد السلطة!!

كانت المناطق الوسطى (من الرياشية وحتى عنس، ومن قعطبة حتى يريم ومن شرعب حتى ريمة) مسرحاً للمواجهات بين القوات الحكومية وميليشيات الجبهة التي اندحرت بعد خوضها مواجهات عديدة مع القوات الحكومية وبعد دخول الإسلاميين على خط المواجهة الذين أقنعوا صالح بضرورة إكمال المواجهة بالغلبة الميدانية رغم توصله لاتفاق سياسي مع الجبهة.

وهنا من المهم القول إنه، وإن كانت التعددية الحزبية محرمة دستورياً، يومذاك، إلا أنها كانت أمراً واقعاً يكتسب حيويته من أجواء السرية ومن طبيعة التقاطب الدولي والانتعاش الأيديولوجي في تلك المرحلة.. كانت الشعارات براقة والأيدلوجيات متضاربة، وكل ذلك لم يكن يمارس بطرق حضارية تثري الواقع السياسي وتخدم المواطن اليمني بل أحدثت هزالاً

شديداً للوطن وفواتاً ماحقاً للمصلحة الوطنية العليا. الأمر الذي استدعى وجود ميثاق ينظم العمل السياسي ويجعل مصلحة الوطن ماثلة في ذهن الجميع. ومن هنا كانت قصة المؤتمر الشعبي العام..

قصة الميثاق والمؤتمر

كان الحل الأمثل للخروج من حلكة التصارع الأيديولوجي الحزبي القائم في الشطر الشمالي منذ السبعينيات، هو أن يتوافق الجميع على كتابة ميثاق بينهم يدلو فيه كل بدلوه ويسهم بأحسن ما لديه. ومن ثم يتم إشراك الفئات الشعبية في إقرار هذا الميثاق والتصويت عليه إضافة وحذفاً وتعديلاً. وذلك عبر مؤتمرات شعبية صغيرة في كل مناطق الشطر الشمالي، يعقبها انعقاد مؤتمر شعبي عام يتم فيه الإقرار النهائي لميثاق العمل الوطني الذي من شأنه، حين العمل به، أن يفسح المجال للتنمية وأن يقلل من الاصطراع والتآمر بحيث يشعر الجميع أنه مشارك في العملية السياسية، وفي وضع القواعد التي تنظم هذه العملية.

بزغت فكرة المؤتمر الشعبي العام أيام الرئيس الحمدي وكان مقرراً أن ينعقد بالحديدة في 15 نوفمبر 77م ولكن الغشمي قام بإلغاء وربما تأجيل ذلك، وبالتالي كان الرئيس علي عبدالله صالح متشرباً للهدف الذي من أجله انبثقت فكرة الميثاق والمؤتمر فهيأ مناخاً ملائماً انتقلت فيه الفكرة إلى

واقع التطبيق وحققت أهدافها بدقة وآتت ثمارها واضحة، فكانت الفترة من 82 إلى 1990 فترة استقرار سياسي وسباق تنموي.

انعقد المؤتمر الشعبي العام في 24أغسطس1982م واتفق المشاركون على استمرارية هذه الفعالية فتم اختيار لجنة "دائمة"، كما لاحت فكرة جعل هذا المؤتمر بمثابة التنظيم السياسي الموحد في الشطر الشمالي الذي يوازي التنظيم السياسي الموحد في الشطر الجنوبي (الحزب الاشتراكي اليمني) [25]، واختير علي عبدالله صالح أميناً عاماً للمؤتمر الشعبي العام. وفي 22مايو 1983م. أعيد انتخاب علي عبدالله صالح رئيساً للجمهورية العربية اليمنية. وفي 1984م وضع الزعيمان علي عبدالله صالح وزايد بن سلطان آل نهيان حجر الأساس للمرحلة الأولى من سد مأرب، وفي نفس العام أعلن عن اكتشاف النفط في اليمن الشمالي بكميات تجارية.

كانت الصورة تزداد تألقاً وبريقاً في الشمال في حين كانت الأوضاع في الجنوب تسير باتجاه معاكس بلغ أعمق مأساته في مجزرة 13يناير1986م، الأمر الذي يجعل أي يمني في الجنوب يُخضع الأمر للمقارنة بين شمال يزدهر وجنوب ينتحر، بين الرخاء وبين الفاقة، بين الحضور الدولي وبين العزلة الإقليمية، بين التعدد السلس وبين الأيديولوجيا الصارخة. وبالتالي كان طبيعياً أن يخرج المواطنون في الشطر الجنوبي لاستقبال الرئيس علي عبدالله صالح أثناء زيارته لعدن 1989م بذلك الترحيب الهادر الذي أحرج قادة الشطر الجنوبي؛ لتأتي الوحدة في 22مايو1990م مفاجئة، في سرعة توقيتها، للكثيرين في الداخل والخارج.

---

[25] – عقد مؤتمره العام الأول في 15أكتوبر1978م.

من هنا سوف نبدأ قصة جديدة هي الأهم والأعقد ذلك أنها ازدحمت بكثيف الأحلام وكثيف الآلام وكثيف الرؤى وكثيف الأطراف وكثيف التحديات. أقصد بالضبط: الفترة من 1990م إلى 2008م. ولكن لابد لنا قبل ذلك من استعراض لمسيرة الوحدة منذ قيام الثورة اليمنية وحتى 22مايو1990م.

22 مايو..

يومَ تصَفّدت الشياطين

لم يحدث منذ قرون أن اندرج اليمن كله في ظل وحدة سياسية واحدة.. تحكم اليمن من أقصاه إلى أقصاه.. حتى حينما توحدت أرجاء اليمن أيام الصليحيين أو "المتوكل على الله"، حيث أنها كانت عملية باهتة لا تحمل المدلول الوطني، بل المدلول السلطوي للطرف الأقوى ولهذا سرعان ما يصبح اليمن دويلات.. من جديد.

الوضع التشطيري أخذ صيغاً عدة كان آخرها شمال وجنوب، ذلك أن اليمن في حقيقة الأمر قد ذاق كل أنواع التشطير شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. كان الهادي –مثلاً– يحكم في صنعاء، ومحمد قاسم الحوثي يحكم في "برط" والسعوديون في تهامة ودولة في البيضاء وأخرى في المكلا، وثالثة في سيئون وسادسة في الضالع. حلّت الدويلات محل الدولة وتوزعت فسيفساء التشرذم اليمني على مختلف التسميات والمساحات والأزمنة. والقاسم المشترك بينها جميعاً هو الضعف وغياب المشروع الجامع.

كانوا حكاماً بلا دول، وسلاطين بلا سلطنات، وقادة بلا جيوش. الأمر الذي وسع الهوة بين الشعب وأوجد حالة من القطيعة مع أرجاء المنطقة، وعمق تنافر اللهجات وتغاير القناعات. في حين سعى الزعامات الجهرية إلى الحفاظ على كراسيهم الخشبية المهترئة عن طريق تعميق حالة القطيعة ثقافياً. وهو ما أدى باليمنيين في الأخير إلى اهتزاز بنائهم المعنوي وشكيمتهم النفسية فصاروا يتوجسون من بعضهم ويجهلون بعضهم،

فيضن كل بمضنونه ويبخل بما لديه ويتخيل في الآخر ما ليس فيه، ويصدق ظنه. إلى أن أصبح اليمن "ذلك المجهول"، وأصبح أهلوه يعيشون في عزلة حضارية تفصلهم عن بعضهم وعن العالم المحيط بهم، وتجعلهم مادة للسخرية، وفاكهة للتندُّر..

نستشف هذا الوضع من أبيات وجهها الشاعر عبدالله البردوني إلى الإمام أحمد في حفل عيد الجلوس:

عيد الجلوس أعر بلادك مسمعاً

تنبيك أين هناؤها هل يوجدُ

فيم السرور ونصف شعبك هاهنا

يشقى ونصف في الشعوب مشردُ

على كل ما سبق استطاعت الحركة الوطنية منذ ثلاثينيات القرن الماضي أن تلملم شظايا الوجع اليمني، وأن توقظ في الشعب عزته النائمة، وأن تستفز قيامته المرتجاة..

كان رواد الحركة الوطنية هم زبدة هذا الشعب وخيرة مثقفيه وأدبائه وشعرائه، وكانوا يمثلون الوحدة الوطنية في أبلغ تجلياتها؛ إذ كانوا من جميع المناطق اليمنية وبلوروا حنيناً عاصفاً تجاه الحلم المرتجى وإحساساً بالقرف تجاه الواقع التعيس؛ ليسفر النضال عن قيام الثورة اليمنية المجيدة، 26سبتمبر1962م 14أكتوبر1963م، التي تعد، برأيي، من أعظم

الثورات في العالم على مدى التاريخ وأكثرها إنسانية ونبلاً وجسارة، وذلك قياساً بصرامة القبضة التي تم بالثورة التخلص منها. وعلى اليمنيين أن يقرأوا ما ترك الثوار؛ ليستشعروا كم كان أولئك الأحرار يحبون هذا الشعب، وبذلوا أرواحهم في سبيل تحوله وانعتاقه. وبالفعل لقد غيرت إرادة أولئك النفر العظيم مصير شعب. ومن الصعب على أي كان، أن يعرف أين يقف الآن. ما لم يعرف أين كان يقف بالأمس.. هذا بعد أن يعرف أصلاً من هو وكم هو وماذا كان، ولماذا وكيف أصبح على ما هو عليه.

هذا ما حدث بالضبط. لم يحدث للشعب اليمني أن تشطر حتى وإن كان واقعاً تحت نظم حكم مختلفة.. التحالف العريق بين المعادلة الانفصالية (الإمامة والاستعمار) كان حريصاً على مصالح بعضه البعض منذ نشوء الكيان الانفصالي المتوكلي في الشمال 1918م، حيث عملت الدولة المتوكلية على تعويق ومحاربة كل حركات الكفاح المسلح التي كانت تتبلور في تعز وإب والضالع لطرد المستعمر. وهي الحركات التي قام بدعمها الأتراك قبل خروجهم من اليمن. وفي سياق هذا المسلسل التشطيري المتفق عليه بين الإمامة والاستعمار حدث نوع من التبادل الخبيث بين الإمام والمندوب السامي؛ تصبح بموجبه الضالع التي كانت ضمن حكم الإمام ذات الشوكة النضالية العنيدة تابعة مناطق الاحتلال مقابل تسليم الإمام لواء البيضاء. الذي كان الإمام تخلى عنه ومأرب بسبب ضحالة عوائده المالية وقام الاستعمار بعدها بإلحاق الضالع بلحج.

"عاش السلال والعربي جمال"

بعد قيام ثورة سبتمبر 1962م اجتمع الرئيس السلال مع ألف من الشخصيات الجنوبية على رأسهم قحطان الشعبي الذي كان يشغل حينها منصب مستشار الرئيس السلال وجرى خلال ذلك اللقاء تنسيق الجهود لطرد المستعمر.. ثم بعد ذلك جاءت زيارة الزعيم جمال عبدالناصر إلى تعز 1964 التي كان لها دور اشتداد أوار الكفاح المسلح وكان عبدالناصر قد حيا يومها الكفاح في الجنوب وقال إن على بريطانيا العجوز "أن تحمل عصاها وترحل".. وعلى إثر ذلك خرجت المسيرات المؤيدة في أرجاء الجنوب والشمال مرددة شعارات التحرر "حاملة صور الزعيم السلال باعتباره رئيساً لكل اليمن وصور الزعيم عبدالناصر باعتباره زعيماً للعروبة".

وكان من الطبيعي أن يقف البريطانيون ضد الثورة على الملكية؛ ولهذا زودوا الملكيين بالطائرات والمؤن والذخائر، وكانت منطقة حريب في مأرب، هي نقطة التواصل بين الانجليز وفلول الملكية. وفيها أقام الإنجليز وحدات صحية لمعالجة جرحى الجانب الملكي. وقد أخبرني العقيد صالح خميس ،رحمه الله، الذي كان أحد القيادات العسكرية لفلول الملكية (قبل انضمامه للمعسكر الجمهوري) أنه تعالج في مركز طبي بريطاني على يد طبيبة بريطانية في تلك المنطقة. تماماً كما تحول حلفاء بريطانيا في المنطقة

إلى قوى داعمة لفلول الملكيين وحرب الجمهورية، ومنهم الجارة الشقيقة المملكة العربية السعودية وكذلك المملكة الأردنية الهاشمية ونظام الشاه في إيران بالإضافة إلى دولة الكيان الصهيوني. الذي دخل المعركة لأهداف عديدة منها: جس قدرات الجيش المصري الذي كان يحارب إلى جانب الجمهورية.[26]

رغم كل هذا الاحتشاد صمدت الثورة، بل وبمجرد ذهاب نظام الإمامة من شمال اليمن سرعان ما أمكن لكتائب التحرير وخلايا الكفاح المسلح أن تكثف هجماتها ضد المستعمر، وسددت له ضربات موجعة خلال سلسلة من المعارك على مدار 4 سنوات تصلح مادة غزيرة لإنتاج المئات من الأفلام التي تحفظ لهذا الشعب تاريخه وتقوي اعتزازه بنفسه. وبفضل

---

[26]– تمَثّل موقف كل من إسرائيل وحليفتها إيران الشاه في دعمهما لفلول الملكية ضد القوات اليمنية بتجنيد مرتزقة من يهود اليمن الذين هاجروا إلى إسرائيل عام 1950 بلغ عددهم 75 ألف فى العامين 1963–1964 للقتال ضد القوات المصرية،وقد تم تنظيم عملية التطوع فى عدة مراكز (فى رأس العين وفي كيرم هينتميائيم وفي هعيمن يزرائيل، وفى مناطق أخري من إسرائيل)، وكانت حملة التطوع تتم بإشراف عدة جهات فى مقدمتها وزارة الدفاع التى كان يتولاها رئيس الوزراء الأسبق "دافيد بن جوريون" والذي وصف اليمنيين بأنهم متخلفون وليست لديهم أدنى فكرة عن الحضارة،ولذا فإن مكانهم الطبيعي أن يكونوا على الحدود اليمنية ليقاتلوا القوات المصرية هناك. (وقد أيدت مصر الثوار وكانت أول دولة تعترف بنظامهم الجديد, وأرسلت قواتها إلى اليمن لدعم الثوار والوقوف إلى جانبهم ضد فلول الملكية). وفى إفصاحه عن تجنيد هؤلاء اليهود اليمنيين الذين تم تنظيمهم فى لواء كامل يشير "فيجدور كهلاني" الذي كان ضمن قادة هذه اللواء إلى أن الولايات المتحدة مولت عملية تجنيد أفراد المخابرات المركزية. ثانيهما: إرسال أسلحة إسرائيلية نقلت هذه الأسلحة تحت إشراف وكالة المخابرات المركزية إلى إيران باعتبار أن الشاه كان طرفاً أساسياً فى الحرب ضد الثورة اليمنية والقوات المصرية، فقد شملت هذه الأسلحة النوعيات التالية: (2000 رشاش عوزي إسرائيلي الصنع، 200 رشاش براونج، 100 مدفع هاون عيارات مختلفة، ومعدات عسكرية وتجهيزات أخرى).

الكفاح المسلح الذي اندلعت شرارته من جبال ردفان الأبية عام 1963م على يد المناضل راجح لبوزة أجبر المستعمر على الرحيل.

سفيرة بريطانيا تنصف الكفاح المسلح أكثر من بعض اليمنيين

ومن المؤسف حقاً أن تجد الآن من بين اليمنيين من يقلل من شأن الكفاح المسلح، ويقول بأن خروج بريطانيا من عدن كان ضمن موجة عالمية أخلت فيها بريطانيا معظم المستعمرات، وهذا الكلام غير صحيح وفيه إساءة كبيرة للنضال المسلح وخذلان لدماء الشهداء كما أنه لا ينطبق بتاتاً على عدن التي لم تكن تمثل للبريطانيين الشيء القليل، بل كانت بالنسبة لهم أهم من هونج كونج التي لم يغادروها إلا في العام 1997م، بموجب اتفاقيات تبقي لهم الكثير من مسامير جحا.

في العام 2003م أجريت حواراً مع السفيرة البريطانية السابقة بصنعاء "فرانسيس جاي" بمناسبة الذكرى الأربعين لثورة 14 أكتوبر، سألتها فيها: هل كان خروجكم من عدن بسبب استراتيجية بريطانية للخروج من المستعمرات أم بسبب الكفاح المسلح.. ليأتي رد سعادة السفيرة صريحاً أن البريطانيين لم يكونوا يريدون أن يخرجوا من عدن، لكنهم أرغموا على الخروج جراء الخسائر الفادحة التي تكبدوها بسبب الكفاح المسلح[27].

---

[27] – صحيفة "الثقافية"، العدد 213، الثلاثاء 18شعبان1424هـ، الموافق2003/10/14م.

لقد كانت سعادة السفيرة أكثر شجاعة من بعض المنظرين اليمنيين الذين يصرون على سلب أنفسهم شرفاً كبيراً ويقدمون للمستعمر خدمات هو في غنىً عنها، ويقومون بالإساءة لشهداء وأبطال الكفاح المسلح الذين هزموا بوطنيتهم وبطولتهم الامبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس.

تزامن جلاء المستعمر مع حصار الملكيين

مثلما أشرنا في مواضع سابقة من هذا الكتاب، فإن المستعمر كما هي عادته، لم يشأ أن يغادر بسلام، وأن يترك البلاد لأهلها.. لكنه أراد أن تكون ضريبة خروجه إذكاء سبب من أسباب التناحر الداخلي؛ فقام بالتفاوض مع الجبهة القومية دوناً عن جبهة التحرير، كما قام في نوفمبر1967م بتحريض الجيش الاتحادي التابع له بمهاجمة جيش التحرير وتخير توقيتاً يخدم أهدافه التشطيرية ليوم الجلاء، وهو 30 نوفمبر 1967م الذي يتزامن مع اليوم الرابع من حصار الملكيين لصنعاء الذي استمر 70 يوماً. وذلك للحيلولة دون أن يؤدي خروجه إلى عودة الكيان السياسي الواحد لليمنيين. وكان من المتوقع جداً الإعلان عن ذلك الكيان اليمني الواحد حتى مع كون صنعاء كانت تحت الحصار. لكن الاستعمار، كما أسلفنا، ترك في الجنوب بوادر الاحتراب بين فصائل الكفاح المسلح[28] التي اندلع الصراع بينها قبل ذهاب المستعمر، وبالتالي فوتت على نفسها فرصة

---

[28] – جدير بالذكر أن أحداث 86 الدامية في عدن كانت إحدى تداعيات الوضع المختل الذي تركته بريطانيا في الجنوب. وتمثل تجلياً للثارات المؤجلة من صراع الفصائل ما بعد الجلاء.

تاريخية بالتوجه نحو صنعاء وفك الحصار عنها وحكم اليمن كله من هناك. وكم كان سهلاً على من هزموا المملكة المتحدة أن يهزموا فلول المملكة المتوكلية في أيام معدودة، لكنهم جعلوا الفرصة تتسرب من بين أيديهم.[29]

يومها كان العالم يعيش بداية رهاب الحرب الباردة بين المعسكرين.. مما يجعل شطري اليمن في نقطة تماس لأهواء القطبين المتصارعين في العالم. وبما أن كلاً من هذين الشطرين أصبح دولة بحد ذاته، فإنه لا محالة ستندلع حروب بين الشطرين وتتكرس تعبئة عدائية سياسياً وثقافياً متبادلة تجعل إمكانية استعادتهما للوحدة أمراً بعيداً.. هكذا خطط الاستعمار لإبقاء حالة التشطير في اليمن؛ عن طريق خطة تزرع أسباب جديدة للتناحر والتمزق بعد أن ذهبت الأسباب العريقة للتشطير المتمثلة بالإمامة والاستعمار اللذين رحلا ولكن مخلفاتهما بقيت تلوث على اليمنيين حياتهم. وتحاول أن تزرع فيهم أسباب الفرقة.. تعوق بينهم أي تقارب وتفوت عليهم أدنى احتفاء.

---

[29]– وهناك من يرى أن سيناريو الاستعمار كان أدهى؛ حيث أن الاتفاقية الناتجة عن مفاوضات الجلاء كانت ربما تتضمن بنداً سرياً إلى جانب كونه يقضي بعدم الإعلان عن دولة يمنية واحدة يفرض على الجبهة القومية إعلان كيان جديد باسم الجنوب العربي ولا يحمل مسمى "اليمن"، لكن الجبهة القومية لم تفرط بالاسم فأعلنت جمهورية اليمن الجنوبي، (عادة ما تكشف الخارجية البريطانية سياستها في كل البلدان التي استعمرتها كل 25 عاماً، وهذا ما فعلته إلا فيما يخص عدن!.

ولاشك أن كل عوامل التشطير المستحدثة لم تستطع أن تقوم مقام الإمامة والاستعمار في بقاء اليمن مشطراً.. لذا استعاد اليمنيون وحدتهم رغم كل العواصف..

الحمدي وسالمين.. تقارب أقلق القطبين

لقد كان هدف الحفاظ على وحدة اليمن هو المحرك الرئيس للإسراع بالثورة ضد الإمامة والاستعمار اللذين يمثلان، كما أسلفنا، عاملاً مزدوجاً في ترسيخ الوضع التشطيري لليمن.. ذلك الوضع الذي عمل على الحيلولة دون أن يلحق اليمنيون بركب الحضارة؛ فلذا قامت الثورة اليمنية وذهبت الإمامة والاستعمار، ولكن بقي الوضع التشطيري في اليمن الجمهوري عاملاً أساسياً من عوامل الاحتراب وكان التشطير سبباً في كل المشاكل التي عاناها شطرا اليمن منذ بداية السبعينات وحتى 22 مايو 1990م.

من ذلك- على سبيل المثال- الحرب الشطرية الأولى 1972 ثم الأعمال التخريبية للجبهة، إلى أن هدأ الوضع بتولي حركة 13 يونيو 1974م الحكم في صنعاء بقيادة الرئيس إبراهيم الحمدي الذي أحرز مع

الرئيس سالم ربيع علي تقدماً كبيراً باتجاه الوحدة وكان هذا التقدم سبباً في اغتيال الأول 11أكتوبر1977م والآخر في 26يونيو1978م.

أجرى سالم ربيع علي مباحثات مع ابراهيم الحمدي في ديسمبر 74 على هامش مؤتمر القمة العربية السابع في المغرب، واتفقا على عدة مسائل تتتصل بالوحدة اليمنية وبالعلاقات مع الدول المجاورة. "وربما كان للزيارة التي قام بها الرئيس ابراهيم الحمدي إلى السعودية ديسمبر 75م دور في الاتصالات التي أسفرت عن إقامة علاقات أخوية بين المملكة والشطر الجنوبي في 10 مارس 76م والبدء في بحث إنهاء الصراع بين عدن ومسقط من أجل رحيل القوات الإيرانية من عمان باعتبار ذلك محل اهتمام السعودية. وكان ذلك من الأمور الذي بحثها الرئيس الحمدي مع الأمير سلطان بن عبدالعزيز أثناء زيارة سلطان لصنعاء 1976/4/10م.

واتخذ سالم ربيع علي خطوات إيجابية بإنهاء مساندة عدن لجبهة تحرير ظفار عمان وتحسين العلاقات مع عمان ودول الخليج، وقدمت السعودية والكويت عام 76م مساعدات مالية لمشاريع التنمية في الشطر الجنوبي وتوطدت العلاقة مع السعودية بزيارة الرئيس سالم ربيع علي إلى المملكة وذلك بالتنسيق مع الرئيس الحمدي.

وكان للرئيسين ابراهيم الحمدي وسالم ربيع موقف موحد في مؤتمر قمة عدم الانحياز بكوالالمبور عام 76م ثم في مؤتمر القمة الرباعي في تعز بين رؤساء شطري اليمن والسودان والصومال بشأن أمن البحر الأحمر

مارس 77م وقد اتخذ المؤتمر موقفاً من التواجد الأجنبي (الأمريكي والروسي) في البحر الأحمر!!

أدت الخطوات الداخلية والخارجية التي قام بها الرئيسان سالم ربيع علي وابراهيم الحمدي إلى توفير مناخ ملائم لإعادة تحقيق الوحدة اليمنية، وتم الاتفاق على توحيد المناهج التعليمية في الشطرين وتم تنفيذ المرحلة الأولى من توحيد المناهج بالفعل.

وفي 15 فبراير 1977م تم تشكيل المجلس اليمني الأعلى ونص البيان الصادر عن لقاء ومباحثات الرئيسين الحمدي وسالم ربيع في قعطبة 15 فبراير 77م على تشكيل مجلس يتكون من الرئيسين ووزراء الدفاع والتخطيط والخارجية. ويتولى المجلس بحث ومتابعة القضايا التي تهم الشعب اليمني وسير أعمال اللجان المشتركة في مختلف المجالات، وتم تشكيل لجنة فرعية من وزراء الاقتصاد والتخطيط والتجارة في الشطرين مهمتها دراسة ومتابعة المشاريع الإنمائية والاقتصادية في الشطرين ورفع التقارير عنها مع المقترحات إلى الرئيسين.. كما تم الاتفاق على أن يمثل أحد الشطرين الشطر الآخر في البلدان التي لا يوجد فيها سفارات.

وفي مارس 77م انعقد بمدينة تعز المؤتمر الرباعي لأمن البحر الأحمر وبحث الرئيسان الحمدي وسالم ربيع تفعيل العمل لإعادة تحقيق الوحدة ثم جرت اتصالات ومباحثات عالية المستوى بين الشطرين في 13 يونيو 77، وفي 15 يوليو 77 وفي 26 سبتمبر 77م.. كما تم الاتفاق على خطوات

وحدوية هامة يتم إعلانها أثناء زيارة الحمدي لعدن والتي تم تحديد موعدها 13 أكتوبر 77م. ومنها: توحيد السلك الدبلوماسي، توحيد النشيد الوطني، توحيد العلم"[30]. لكن الحمدي اغتيل قبل تلك الزيارة بيومين وكان واضحاً أن قوى كبرى وقفت وراء الغشمي ليغتال الحمدي خوفاً من إعلان الوحدة في العيد الـ14 لثورة الـ14 من أكتوبر. ثم بعد أن واصل الرئيس سالمين مشواره الوحدوي مع الرئيس الغشمي سرعان ما تدخلت هذه القوى من جديد لتغتال الرئيسين في يومين الأول في 24يونيو، والثاني في 26يونيو1978م.

صالح وفتاح.. الأساطيل تتحرك

وأفضى هذا السيناريو الدامي إلى صعود علي عبدالله صالح في صنعاء 17يوليو1978م. وعبدالفتاح اسماعيل في عدن في العام ذاته واللذان خاضا حرباً "وحدوية" في الأيام الواقعة ما بين نهاية فبراير وبداية مارس1979. علماً أن القوى الدولية كانت تهدف إلى اشتعال حرب كبيرة بين الشطرين مستغلة مواجهات فبراير 1979، وأثار مسار الحرب قلقاً في الرياض وواشنطن وربما شهية لاستمرارها وإذكائها. "حيث أعلنت السعودية وضع قواتها المسلحة في حالة تأهب، واستدعت الوحدات العسكرية السعودية التي تعمل ضمن قوات حفظ السلام في

[30] – محمد حسين الفرح، "معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن" ص (62).

لبنان، وتحركت قوات سعودية من الجيش والحرس الوطني إلى مناطق الحدود في مطلع مارس. بينما قامت أمريكا بتوجيه حاملة الطائرات (كونستيليش) وثلاث بوارج حربية إلى البحر العربي في 5مارس1979 وأعلن "البيت الأبيض" في 7مارس أنه سوف يعجّل بإرسال شحنة من الدبابات والمدافع والمدرعات الأمريكية إلى الجمهورية العربية اليمنية (الشطر الشمالي) ضمن صفقة أسلحة قيمتها 390 مليون دولار، وأرسلت أمريكا طائرتين من طراز (أواكس) إلى السعودية في 9 مارس وعرضت إرسال سرب من طائرات إف15. وأجرى الرئيس الأمريكي جيمي كارتر اتصالات بموسكو وتم الإيحاء بأن موسكو لن تساعد عدن، وأن التعزيزات الأمريكية التي سترسل إلى صنعاء والتعزيزات في السعودية والبحر الأحمر ستؤدي إلى نتائج لصالح صنعاء. كانت إيحاءات الرياض وواشنطن وتحركاتهما العسكرية يمكن أن تشجع صنعاء على الاستمرار في الحرب وعدم التجاوب مع الجهود السلمية العربية وقرارات الاجتماع الاستثنائي لمجلس الجامعة العربية الذي انعقد في الكويت لإيقاف الحرب بين شطري اليمن".[31]

وبالفعل خيب رئيسا الشطرين آمال المشجعين على الحرب وتم لقاء قمة بينهما في الكويت نهاية مارس 79م خرج فيها الرئيسان بالاتفاق على خطوات عملية باتجاه إعادة الوحدة اليمنية كما تم حل المشاكل القائمة وبتأثير من عبدالفتاح اسماعيل أوقفت الجبهة الوطنية نشاطها

---

[31] – محمد حسين الفرح "معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن" ص (62).

المسلح (التخريبي) بشكل كامل(أبريل 1979)، وعلى صعيد التعديل والتقارب في السياسة الخارجية تم تحسين العلاقات بين صنعاء والدول العربية ذات الاتجاه القومي، وبين عدن وبعض الدول الخليجية والعربية، وألغى مجلس جامعة الدول العربية قرارات المقاطعة للشطر الجنوبي، وقام القذافي بزيارة شطري اليمن (يونيو 79) لدعم العمل الوحدوي! بينما شهدت العلاقة بين صنعاء والرياض نوعاً من الفتور وأجّلت الرياض صفقة الأسلحة الأمريكية في إطار أنواع من الضغوط شملت عدة مجالات، وقد رد الرئيس صالح على ذلك الحجب للأسلحة الأمريكية بعقد صفقة أسلحة مع بولندا وصفقتين مع الاتحاد السوفيتي شملت مئات الدبابات وأربعين طائرة "ميج" وأسلحة متنوعة. وتزامن ذلك مع عقد معاهدة صداقة وتعاون بين الشطر الجنوبي والاتحاد السوفيتي أكتوبر 79.

وفي 5فبراير 1980م أعلن "سايروس فانس" وزير الخارجية الأمريكي أمام جلسة علنية للجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس النواب الأمريكي أن الولايات المتحدة تجابه موقفاً هاماً ومزعجاً في اليمن الشمالية، وأشار إلى دور سوفيتي متزايد في البلاد والاحتمال المتزايد للوحدة اليمنية[32].

وبعد هذا الإعلان بحوالي شهرين ونصف وتحديداً في 22أبريل1980م شهدت عدن صراعاً سياسياً تم بموجبه صعود علي ناصر

32 - نفسه ص(66-67).

محمد وإقصاء عبدالفتاح اسماعيل، الذي كان يومها الطرف الرئيسي الثاني في الاحتمال المتزايد بتحقيق الوحدة!!

صالح.. الطريق الواثق إلى عدن

بعد صعود الرئيس علي ناصر محمد في عدن استمرت الخطوات الوحدوية ولكن بخطى بطيئة بسبب عوامل دولية ومحلية متداخلة منها حالة عدم الاستقرار السياسي في نظام عدن الناتجة عن تركيز علي ناصر محمد السلطات الثلاث بيده، (رئاسة الدولة، رئاسة الوزراء، والأمانة العامة للحزب الاشتراكي اليمني). الأمر الذي أدى إلى انفجار الوضع عقب المؤتمر العام الثالث للحزب في 13يناير1986م والذي نتج عنه اغتيال مجموعة من الصف القيادي الأول أبرزهم نائب الرئيس علي عنتر ووزير الداخلية صالح مصلح، وعضو المكتب السياسي علي شايع هادي.. وغيرهم.. ثم مقتل عبدالفتاح اسماعيل ونشوب حرب دامية في عدن لمدة أسبوع رجحت كفة الأطراف التي كانت مستهدفة بتلك الأحداث وأدت إلى هروب الرئيس علي ناصر محمد إلى أثيوبيا ثم صنعاء فالاستقرار في دمشق. وتولى القيادة في عدن المهندس حيدر أبوبكر العطاس في رئاسة الدولة والأستاذ علي سالم البيض أميناً عاماً للحزب ود.ياسين سعيد نعمان رئيساً للوزراء..

هذه السلسلة الدامية من الأحداث أفقدت النظام في عدن ثقة الشرق والغرب وجعلت موقف القيادة محرجاً أمام العالم .. فبدا نظام عدن ضعيفاً بعد 86م. زاد من ضعفه خطة "البروسترويكا" التي أجراها الرئيس

السوفيتي "ميخائيل غورباتشوف" ثم ظهور أمارات انهيار المنظومة السوفيتية.

كل ذلك مقابل انتعاش مادي، واستقرار سياسي وعلاقات جيدة لنظام صنعاء ما سنح للأخير بأن يقود هجوماً سياسياً من أجل تحقيق الوحدة أسفر عن توقيع اتفاق عدن في1989 على مسودة دستور الوحدة ثم الإعلان عن قيام الجمهورية اليمنية 22مايو1990م. وهو اليوم الذي انتظره اليمنيون منذ قرون وقدموا قرباناً له قوافل من الشهداء وذرف اليمنيون في ذلك اليوم بالداخل والخارج دموع الفرح.

لقد سعى صالح باتجاه الوحدة بخطوات ممزوجة بالحكمة والحذر معتبراً من كل التجارب ذات المآلات المؤسفة لسابقيه، لذا حرص على تهيئة جو مناسب لقيام الوحدة بما يرسخها ولا يعرضها لأية انتكاسة. ولهذا رفض في يناير 1986 أن يستغل الأجواء المرتبكة في عدن للانقضاض، وذلك لإدراكه أن الوحدة لا يمكن تحقيقها وترسيخها بالاجتياح؛ بل بالتفاهم الودي الصادق والمشاركة الجدية في صياغة وإدارة دولة الوحدة.. مضافاً إلى ذلك تهيئة الأجواء الدولية لكي تبارك الأطراف الفاعلة قيام الوحدة اليمنية. لهذا قام صالح بزيارة لواشنطن بداية العام 1990م انتزع خلالها مباركة أمريكية لقيام الوحدة ثم في فبراير1990 قام بزيارة للملك فهد في حفر الباطن انتزع منه هو الآخر مباركة سعودية لقيام الوحدة. هذا بعد أن عزز موقعه التفاوضي من خلال اشتراكه في مجلس التعاون العربي الذي ضم كلاً من (اليمن الشمالي، العراق ، مصر، الأردن).

وفي رأيي أن من نتائج أحداث يناير1986 في عدن صعود طاقم قيادي من الصف الثالث لم يكن مهيئاً قبلها لاستلام دفة الأمور لولا مقتل وفرار الصفين الأول والثاني. ما أوجد هوة حقيقية بعد ذلك بين نظامي صنعاء وعدن من حيث الخبرة والتجربة والحنكة السياسية لمصلحة نظام صنعاء الذي كان المؤثر الأساسي في سيرورة الخطوات الوحدوية حتى مايو 1990م.. ويتجلى مثل هذا الفارق في الخبرة، كذلك في طبيعة إدارة كل منهما للأزمة السياسية 92-94م وحتى حرب صيف 94م حيث أن البيض والعطاس دخلا الأزمة بحسابات خاطئة وبتكتيك قاصر جعلهما يفقدان كل شيء دفعة واحدة!!

أوجاع ما بعد90

اقتضت أجواء الوحدة الاندماجية المتزامنة مع السماح للتعددية الحزبية تقاسماً حرفياً لمناصب الدولة بين شريكي الوحدة والحكم (المؤتمر الشعبي العام والحزب الاشتراكي اليمني). وانقضت سنة العسل الأولى لتبدأ ملامح الأزمة السياسية بينهما في الخروج إلى السطح.

وبسبب التعددية الحزبية أعلن الإخوان المسلمون وجزء من تيار المشائخ والتجار، قيام تنظيم خاص بهم هو "التجمع اليمني للإصلاح" كقوة ثالثة في مربع التنافس السياسي في اليمن. ورغم أن "المؤتمر الشعبي العام" كان يرى في قيام "التجمع اليمني للإصلاح" فائدة سياسية له تضطلع، نيابة عنه، بالهجوم الفكري على الاشتراكي، إلا أنه في المقابل خشي أن يذوب في المدى القريب أو المتوسط أو البعيد بين تنظيمين سياسيين حقيقيين، هما: الاشتراكي والإصلاح. وبالتالي حركته هذه المخاوف للمضي في اتجاهين.. الأول: القيام بعملية استقطاب واسعة لكوادر وقيادات في الحزب الاشتراكي اليمني، والثاني: الضغط المتكرر على الاشتراكي للقبول بفكرة الاندماج مع المؤتمر وهي الفكرة التي لم يوافق عليها جناح كبير في الاشتراكي لأنه كان يرى أن موقفه أقوى، باعتباره حزباً أيديولوجياً يمتلك امتداداً تاريخياً في محافظات الشمال، بينما "المؤتمر الشعبي العام" حزب عفوي لا يمتلك عمقاً جماهيرياً في محافظات الجنوب.

كل هذا ضاعف من مخاوف "المؤتمر" الذي استمال إلى جانبه "تجمع الإصلاح" كخصم أيديولوجي للاشتراكي. في حين حدث تنسيق واسع

بين الحزب الاشتراكي و"حزب الحق" المحسوب على التيار الإمامي كخصم أيديولوجي للإصلاح والمؤتمر، في الوقت الذي عمل فيه على كسب ولاء زعامات قبلية في المحافظات الشمالية. وفي اعتقادي أنه لا يجب علينا تحميل التدافع الحزبي بين الائتلاف الحاكم في تلك الفترة ما لا يحتمل؛ إذ كان أمراً طبيعياً حدوث ذلك التدافع والتنافس من كل منهما تمهيداً للانفراد بالحكم بعد الانتخابات المزمع إجراؤها بمجرد انتهاء الفترة الانتقالية.

حدث هذا التدافع السياسي الطبيعي واتخذ أطواراً غير طبيعية جراء احتفاظ كل من الحزبين بالقوات المسلحة الموالية له، ما أدى إلى الحرب في صيف عام 1994م.. تلك الحرب التي ارتكبت فيها بعض القيادات في الحزب الاشتراكي خطأ كبيراً بإعلان الانفصال، لتأتي نتيجة الحرب في صالح الطرف الذي رفع شعار الوحدة.

ورغم قساوة ما حدث وبعيداً عن ماهية الطرف الذي انتصر والطرف الذي انهزم، فإن ذلك الصراع وتلك الحرب لم تؤديا إلى عودة الأوضاع إلى ما قبل 90م. وهذا هو الشيء المهم الذي سيعلق في ذاكرة الزمن؛ إذ أصرت الأحداث على أنه ما كان لوحدة الشعب أن تتحقق بدون حدوث ما ينغص. (وأعتقد أنه إن كان لأي مشروع انفصالي أن ينجح فليس هناك على الإطلاق أفضل من الظروف والعوامل الخارجية والداخلية التي توفرت لمحاولة عام 1994م)!!

ويمكن اختصار ما حدث أن كلاً من شريكي الوحدة كانت له حساباته أثناء إدارة الأزمة السياسية، لكن طرفاً ما، بكل تأكيد، كانت حساباته خاطئة.

ما يهمنا هنا ليس التوثيق الدقيق لما حدث، وإنما استقراء أسلوب الرئيس علي عبدالله صالح في إدارة الأزمة، ومدى ما يعود إليه من مسئولية، على صعيد تعكير صفو العلاقات بين الحزبين، فالأزمة والحرب والحسم.. والمسألة، برأيي، رغم أنها كانت مصيرية إلا أنها لم تعط حقها من الدراسة والبحث، وتقليب الملابسات والظروف بشكل موضوعي ومكتمل وخال من التمترس في خندق الطرف هذا أو ذاك.

أس الأزمة.. موقف اليمن في أزمة الخليج الثانية

يمكن القول إن أهم سبب أثر في سيرورة الأمور على النحو الذي سارت عليه، هو موقف اليمن من أزمة الخليج الثانية؛ حيث أن اليمنيين بعد الوحدة وجدوا أنفسهم ولأول مرة منذ قيام الثورة اليمنية، يتخذون قراراً نابعاً من قناعاتهم الوطنية ومسئولياتهم القومية وحسبانهم الحضاري، فجاء موقف اليمن في أزمة الخليج الثانية (التي اندلعت في 2أغسطس1990 أي بعد 70 يوماً تقريباً من قيام الوحدة) متلخصاً فيما يلي:

الرفض التام والشديد لاجتياح العراق للكويت، والرفض التام والقاطع لمجيء قوات أجنبية إلى المنطقة.. وجراء الصدمة الناجمة عن الغزو، فقد فؤجئ الإخوة الكويتيون، والخليجيون بشكل عام بهذا الموقف، وكانوا مصرين يومها على ضرورة استيفاد قوات دولية لتحرير الكويت وتأديب العراق. وكان من سوء حظ اليمن يومها أن يكون هو الممثل الدوري للمجموعة العربية في مجلس الأمن ليصوت ضد قرار مجيء القوات

الأجنبية، ما ضاعف من حمأة السخط على اليمن، ليس من جانب الخليجيين فقط، بل من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وأكثر من 30 دولة متحالفة معها. زد على ذلك انفتاح شهية الشائعات والدسائس التي جعلت من الموقف اليمني قرينة للتأكيد على أن لـ "صدام" و"صالح" مطامع مشتركة في الخليج، وأنهما يمثلان فكي كماشة تستعد للانقضاض عليه.

أولى النتائج الفورية لهذا الموقف اليمني تمثلت في عودة ما يقرب من مليون مغترب يمني من دول الخليج. سببت عودتهم الجماعية، حينها، ضغطاً اقتصادياً كبيراً على اليمن. في حين كان اليمن، أصلاً، يعاني مشكلة اقتصادية بسبب كلفة اندماج النظامين وتوحيد مؤسسات الشطرين اللذين كان كل منهما يتبع نهجاً مغايراً للآخر في السياسات الاقتصادية. فضلاً عما استجد أثناء ذلك من تداعيات أزمة الخليج الثانية وحرب تحرير الكويت وتوقف الصادرات النفطية العراقية والكويتية ما أدى، حينها، إلى أزمة عالمية في النفط، وارتفاع في أسعار المواد الأساسية، ناهيك عن حرمان اليمن من عوائد المغتربين ودعم الدول الخليجية المادي والمعنوي.

1992 الاشتراكي معارضا!!

كل هذا كان بمثابة الزيت الحارق الذي تم صبه على الأزمة السياسية في اليمن ليقوم الحزب الاشتراكي في العام 1992م بتشجيع مظاهرات احتجاجية عنيفة عمت عواصم المحافظات وأدت إلى استياء كبير من قبل

الرئيس صالح؛ إذ كيف يقوم الاشتراكي بتشجيع مثل هكذا مظاهرات وهو حزب شريك في الحكم ومدرك لطبيعة الأزمة الاقتصادية. (وهذا خطأ عجيب؛ إذ بموجبه حول الاشتراكي نفسه بلا وعي إلى خانة المعارضة ورسخ في الأذهان أن الحاكم هو الرئيس والمؤتمر فقط).[33]

ولابد أن مضاعفات الاستياء الدولي من الموقف اليمني في أزمة الخليج الثانية قد وجدت في مناخ التدافع السياسي بين شريكي الوحدة بيئة صالحة لإضعاف هذا اليمن الجديد الذي أصبح يقوى على اتخاذ قراره المستقل وموقفه الذي يعجبه، فحاولت بعض الأطراف الخارجية النفاذ من بعض ثغرات الخلاف لدى طرفي الأزمة، وخصوصاً لدى عناصر في الحزب الاشتراكي اليمني كانت متحفظة على الوحدة الاندماجية، ما أدى إلى تبلور تيار ضاغط ومدعوم داخل الاشتراكي يعمل على محاولة استعادة البراميل، ولهذا كانت تمزق صور الرئيس علي عبدالله صالح في عدن، وكان يتم طرد ومضايقة العمال الوافدين إليها من المحافظات الشمالية.

ازداد الأمر سوءاً باكتشاف النفط في بعض المحافظات الجنوبية، وبلغ المشروع الانفصالي أوجه حينما أعطى المجتمع الدولي أريتريا حق الاستقلال عن أثيوبيا في مايو 1993م، علاوة على أن العامل الأكثر أهمية يتمثل في الصدمة التي سببتها نتائج أول انتخابات تشريعية (27 أبريل 93م) للحزب الاشتراكي اليمني الذي بدلاً من أن يكتسح الشمال، كما كان يحلم (مع ضمانه لدوائر الجنوب)، تراجع إلى المركز الثالث، في

[33] – كان لحلفاء الاشتراكي خصومتهم الخاصة مع نظام الرئيس علي عبدالله صالح والنظام الجمهوري ككل فعملوا على تعميق الهوة بين الاشتراكي والمؤتمر.

حين حصد الإسلاميون (التجمع اليمني للإصلاح) المركز الثاني والمؤتمر الشعبي العام المركز الأول.[34]

حينها، وجد المؤتمر الفرصة مناسبة للضغط مجدداً على الاشتراكي بضرورة الاندماج في حزب واحد، وهو ما سيضمن لهما الانفراد بالحكم وجعل الإصلاح خارج دائرة الائتلاف الحكومي، لكن الجلسات المقرر انعقادها لمناقشة هذا الأمر لم تنعقد بسبب إصرار علي سالم البيض نائب رئيس مجلس الرئاسة على الاعتكاف في عدن الذي بدأه منذ عودته من رحلة علاجية إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 93م. ولم يعد إلى صنعاء منذ ذلك اليوم وحتى تاريخ كتابة هذه السطور. وبفعل الوساطات والخطابات بدا أن المفاوضات مع البيض لم تعد في مضمار الترضيات الحزبية وحصة الحكم، بل بدا وكأن أطرافاً في الاشتراكي تعيد النظر في القصة برمتها!

"علي سالم خدم الوحدة مرتين"

لم يكن يحتاج الأمر إلى ذكاء شديد من قبل الرئيس علي عبدالله صالح لاستنتاج أن البيض لا يريد العودة إلى صنعاء خصوصاً مع تواتر التأكيدات عن وصول شحنات من الدعم المادي والعسكري عبر مطار وميناء عدن، ومع هذا كان من الواجب عدم التسليم لمثل هذا الاستنتاج،

---

34 – يتكون قوام برلمان الجمهورية اليمنية من 301 عضو، حصد المؤتمر في انتخابات 93 122 مقعداً منها، بينما حصل الإصلاح على 63 مقعداً، وحصل الاشتراكي على 56 مقعداً وتوزع الباقي على المستقلين وخمسة أحزاب صغيرة.

ولابد من استنفاد كافة سبل الحوار، وبالفعل تتالت الوساطات الوطنية بين الرئيس ونائبه،[35] وتعاقبت الشروط من قبل البيض، يقابلها الموافقة من قبل صالح، وكان آخر هذه الشروط التوقيع على وثيقة عهد تعيد النظر في شكل الدولة وتحد من صلاحيات الرئيس وتوقع خارج البلاد برعاية طرف ثالث، ووافق عليها صالح ليصل الجميع إلى عمّان 10فبراير1994م ويوقعوا على "وثيقة العهد والاتفاق" بحضور كافة القوى والأحزاب الوطنية، وبرعاية العاهل الأردني الحسين بن طلال- رحمه الله-، وكان يفترض بعد التوقيع على الاتفاق عودة البيض إلى صنعاء، لكنه، ودون تشاور مع الرئيس، عاد إلى السعودية وعمان ومنها إلى عدن. في نفس الوقت الذي أرسل مبعوثيه إلى الكويت والإمارات، ليبدو وكأن إعلان الانفصال أصبح واقعاً وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر. هنالك أيقن صالح أن الأزمة تنحو باتجاه الحسم العسكري، فأعد له عدته، وجرت الأمور على نحو قياسي من سرعة الحسم؛ حيث أمكن لتحالف الشرعية الدستورية حسم المعركة لصالحه في شهرين. بعد أن أعلن البيض عقب مرور أسبوعين على بدء المواجهات وتحديداً في 21مايو1994م، عن انفصال المحافظات الجنوبية والشرقية الأمر الذي أكسب صالح دعماً شعبياً كبيراً، حتى لقد قال المراقبون يومها: إن علي سالم البيض -بهذا الإعلان- خدم الوحدة مرتين!!

---

[35] – علماً أن دستور الوحدة لا ينص على وجود منصب نائب الرئيس بمجلس الرئاسة.

صالح أمام تبعات النصر

في 7يوليو94م انتهت المواجهات العسكرية وأصبح علي عبدالله صالح رئيساً بلا منافس، بعد أن كسب أيضاً المعركة الدبلوماسية المصاحبة للحرب، والتي حالت دون حصول الكيان الانفصالي على اعتراف دولي أياً كان حجمه.[36] ومن شأن انتصار سريع كهذا أن تكون له تبعاته الكبيرة، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي. خصوصاً وأن شماتة الهزيمة لم تلحق بالقيادات الانفصالية في الحزب الاشتراكي اليمني بالقدر الذي لحقت الأطراف الخارجية التي شجعت مشروع الانفصال ودعمته بالسلاح والمال.

بكل المقاييس كان ذلك الحسم مفاجئاً وكبيراً ومغيظاً للكثير من الأطراف، وخاصة الخارجية، ما يعني أن محاولات تنغيصه ستكون هي الأخرى مفاجئة وكبيرة ومغيظة، ولهذا وجد صالح نفسه بعد 7يوليو مع مصفوفة من الملفات الملحة:

- ترسيخ دعائم الوحدة الوطنية، وإزالة آثار الحرب على المستوى النفسي، وهذا يستدعي إصدار قرار العفو العام ومصفوفة من الإجراءات الأخرى أسهمت في إخماد أدخنة ما بعد الحرب.

- إزالة آثار الأزمة والحرب من الناحية الاقتصادية، والتي تنامت وأثقلت كاهل الاقتصاد الوطني بسبب فاتورة الوحدة، وكذا فاتورتي الأزمة والحرب. التي كان محصلتها تراجعاً كبيراً في قيمة العملة الوطنية،

[36] - كان لدولة قطر موقفها القوي مع الوحدة اليمنية من خلال عرقلتها لأي قرار من مجلس التعاون الخليجي يدعم الانفصال.

وتـأخراً في متطلبـات التنميـة وازديـاداً في معـدلات التوظيـف والبطالـة والفقر.

- السعي لاستعادة الرضى الإقليمي، بالذات دول الجوار عن نظـام ما بعد الحرب، ودرء أية محاولات ارتدادية للفلول الهاربة متخذة من الجوار الإقليمي منطلقاً لعملها.

- محاولة كسب ود المجتمـع الـدولي الـذي مـازال يحمـل في نفسـه الشيء الكثير تجاه اليمن، وتجاه علي عبدالله صالح بالذات، بسبب الموقـف من أزمة الخليج الثانية. وقد نجح صالح في ذلك عن طريق تأكيد المضـي في طريق الديمقراطية والتعددية وإجراء الانتخابات في موعدها المحدد.

- ترسيخ إطار دستوري يمكن موقع الرئيس من الحركة بشكل أكبر ويخوله المزيد من الصلاحيات، وذلك ضماناً للإسـراع في إنجـاز خطـوات ملموسة وسريعة في بقية الملفات.

- تسوير اليمن، وذلك من خلال الانتهاء من الملفات الحدودية مـع الجيران براً وبحراً.

وبالفعل كانت الفترة من يوليو 94 وحتى أواخر عام 2000م، هي المدة الزمنية التي شهدت فيها جميع هذه الملفات خطوات ملموسة بنسب متفاوتـة. ولقد كانت أولى هذه الخطوات متمثلـة في تعـديل دسـتوري في سـبتمبر 94، نتج عنه إلغاء شكل مجلس الرئاسة واستبداله بمنصب رئيس الجمهورية الذي سرعان ما عين نائباً له اللواء عبدربه منصور هـادي. والـذي كـان قـد شـغل منصب وزير الدفاع أثناء الحرب، تـلا ذلـك اسـتقدام البنـك الـدولي لكـي يشرف على برنـامج للإصـلاحات الاقتصـادية، عـرف بــ "برنـامج الجـرع السعرية" الذي أقره حزبا الائتلاف الحاكم بعد الحرب (المؤتمر والإصـلاح). "ورغم النجاحات السياسية والاقتصادية التي تحققت للرئيس علـي عبـدالله

صالح عام 97م، مثل إلغاء نادي باريس لمعظم ديون اليمن واجتماع الدول المانحة في بروكسل، والتوقيع على اتفاق التعاون الشامل مع الاتحاد الأوروبي، والزيارات الهامة التي قام بها صالح لألمانيا وفرنسا وبريطانيا. فإن العام 98 قد جاء ومعه انتكاسة أسعار النفط التي أصابت برنامج الإصلاحات السعرية في مقتل، وتبعتها استقالة رئيس الوزراء الدكتور فرج بن غانم التي أدت إلى اهتزاز الثقة بالسلطة القائمة على المستوى الشعبي والمستوى الخارجي، ثم الاحتجاجات التي حدثت 20 يونيو 1998م ضد الإصلاحات السعرية وما يتخلل كل ذلك من عمليات اختطاف للأجانب وابتزاز للمستثمرين وانفلات أمني واستشراء الفساد في سائر أجهزة السلطة التنفيذية والقضائية بحيث كادت تلك المظاهر جميعها أن تقضي على آمال المواطنين".(37)

احتفالات العيد العاشر

"من قلعة الأنصار جاء النبأ"

فيما يتعلق بالعلاقات مع الجوار والملف الإقليمي العربي بشكل عام، فقد قام الرئيس علي عبدالله صالح بزيارة لجمهورية مصر العربية 1995 رغم موقفها المؤلم من حرب الانفصال، في الوقت الذي ظل فيه ملف العلاقات مع الجارة الكبرى المملكة العربية السعودية متوتراً ووصل إلى تناوش حدودي. ومعركة برية صغيرة بين الطرفين، أرسل صالح على إثرها

[37] – نصر طه مصطفى "علي عبدالله صالح– التجربة وآفاق المستقبل"1999ط1

وفداً رسمياً برئاسة الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، رحمه الله، -رئيس مجلس النواب- وعضوية عبدالقادر باجمال نائب رئيس الوزراء، وزير التخطيط وعبده علي عبد الرحمن نائب وزير الخارجية قضى الوفد 40 يوماً في المملكة متوجاً إياها بتوقيع مذكرة تفاهم 26فبراير1995م، والتي أسهمت في تليين الأجواء ومهدت للزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس علي عبدالله صالح بعد ذلك بأربعة أشهر إلى السعودية وهي الأولى منذ أزمة الخليج كما تم بموجب مذكرة التفاهم جدولة عودة اجتماعات مجلس التنسيق اليمني السعودي.. لكن وتيرة استعادة الثقة بين البلدين مضت على نحو بطيء نوعاً ما، إلى أن تكللت بعد ذلك بالنجاح بتوقيع اتفاقية ترسيم الحدود بين البلدين في جدة يونيو 2000م، وذلك بعد أن استطاع صالح أن ينتزع مشاركة وفد كبير وعالي المستوى من المملكة العربية السعودية لحضور احتفالات الجمهورية اليمنية بالعيد الوطني العاشر 22مايو2000م. برئاسة ولي العهد آنذاك عبدالله بن عبدالعزيز، وكان الرئيس قد أشرف بنفسه على إعداد الحفل الفني والعرض العسكري الذي أقيم بهذه المناسبة، وحرص[38] على تضمين الحفل رسالة تطمينية واضحة للأشقاء في المملكة مكونة من شقين: الأول هو أن اليمن أصبح قوياً ومنسجماً وموحداً، ومهيئاً لاتخاذ أي قرار يتعلق بالترسيم النهائي للحدود.

أما الشق الثاني، فكان مفاده أن هذا الوضع القوي لليمن شعباً وقيادةً وجيشاً، سيصب بالتأكيد في صالح المملكة، ولن يمثل في يوم ما على الإطلاق عامل تهديد أو إزعاج للجارة الكبرى، بل على العكس.

---

[38]- كما أدلى لي بذلك مخرج الحفل فريد الظاهري، رحمه الله.

وصلت الرسالة.. وتم في جدة بعد أيام على ذلك الحفل التوقيع على اتفاقية تاريخية أنهت أكبر موجب للتوتر بين البلدين، ليتم بعدها في العام الذي يليه تكريم الاتفاقية بحفل فني في عدن يحمل الكثير من المشاعر الحميمة للإخوة السعوديين، بحضور ولي العهد حينها الأمير عبدالله بن عبدالعزيز. ويعتبر ذلك الحفل، في نظري، بمثابة الصفحة الأخيرة في حقبة الترميم المتاح التي تلت حرب 94م. ثم ابتدأت صفحة جديدة في مضمار التحديات. وذلك عندما فوجئ العالم بحادثين إرهابيين استهدفا مصالح غربية في اليمن..

الأول تفجير جوار السفارة البريطانية في صنعاء، والثاني (وهو الأقوى والأعنف) استهدف المدمرة الأمريكية "يو إس إس كول" التي قصدت ميناء عدن للتزود بالوقود في أكتوبر 2000م. هذان الحادثان وما أعقبهما من أحداث عالمية ومحلية، سببا ارتباكاً لكل استراتيجيات المنطقة، على النحو الذي نوضحه في الفصل التالي.

سنوات اللغط السياسي

بدأت أعوام العقد الأول من المائة الأولى من الألفية الثالثة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001م التي أعطت الإدارة الأمريكية الجديدة مبرراً مشبوهاً للسطو على خارطة العالم على هذا النحو الذي شهدناه حتى اليوم. وبالتالي أخذت سياسات البلدان في العالم الثالث تحديداً، تنكمش وتنحسر عن ساحة الطموحات لتتراجع إلى ساحة الدرء وتجنب ما هو أسوأ. واليمن واحد من هذه البلدان، وجد نفسه ضحية لأحداث سبتمبر ووجد نفسه أمام مزاج أمريكي جديد، غاية في السوء، وغاية في العبثية، و"الفوضى الخلاقة"..

وسبق أن ذكرنا أن صالح في العام 2000، كان قد وصل في برنامج الترميم واستعادة الثقة إلى نجاحات ملموسة، تكللت بتوقيع اتفاقية جدة، التي أعقبتها قمة عربية للتنديد بتدنيس شارون لباحة المسجد الأقصى المبارك، وكانت اللقطة التي اقتنصتها عدسة المصور الفرنسي لمحمد الدرة وأبيه، قد ألهبت مشاعر الجماهير العربية، وفرضت على القادة العرب موقفاً غاضباً من إسرائيل وأمريكا، وهو ما فعله صالح الذي بدا في تلك القمة على انسجام كبير مع قادة دول الخليج لم يسبق له مثيل منذ العام 1990م.

في تلك الفترة تعرض اليمن لهجومين إرهابيين: انفجار في صنعاء بالقرب من السفارة البريطانية، أعقبه هجوم على المدمرة الأمريكية "يو إس إس كول" في ميناء عدن.

وما إن يعتقد اليمن أنه قد نجا من تبعات هذين الهجومين حتى تقع هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001م على برجي مركز التجارة العالمي في منهاتن بنيويورك وجزء من البنتاجون بواشنطن. وهو الحادث الذي كانت له آثاره المدوية على كافة الدول. لكن آثاره على اليمن كان يراد لها أن تكون هي الأوضح بسبب ما حدث لكول في عدن قبل عام، فارتفعت بعض الأصوات الأمريكية المتشددة مطالبة بمعاقبة اليمن قبل أفغانستان. ما يعني أن استقرار اليمن على كف عفريت..

سقوط بغداد وأثره في تأزيم العلاقة بين السلطة والمعارضة

كان الرئيس علي عبدالله صالح يستشعر هذا بقوة؛ فطار إلى واشنطن مستبقاً أي قرار أهوج، وموضحاً موقف اليمن الرافض للإرهاب، ورفض الجمهورية اليمنية ربط الإرهاب بالإسلام، مبدياً استعداد اليمن للدخول في حلف الحرب على الإرهاب ومحاربة أسبابه ومظاهره. ومستنداً على ما كان أبداه اليمن من تعاون في مسألة التحقيقات بشأن تفجير كول، وحينها وبموجب الزيارة، عاد صالح من واشنطن وهو يتنفس الصعداء، لأنه يدرك أنه جنب اليمن استهدافاً أمريكياً مؤكداً. وبالتالي ووفقاً لتلك الأجواء، كان الصمت العربي والإسلامي تجاه غزو أفغانستان وإسقاط نظام طالبان وتنظيم القاعدة المتهم بتفجيرات 11 سبتمبر بمثابة أقل

الضررين. لتبدأ المعاناة الحقيقية بعد غزو أفغانستان وإعلان بوش عزمه على غزو العراق؛ بعد أن تعزز الحضور العسكري لأساطيل الولايات المتحدة في كل المناطق الحساسة في المنطقة، وكذا بعد أن أمسى القرار الأمريكي منفلتاً من عقال مجلس الأمن، ومن عقال العقل أيضاً.

هي حقبة من الهوان لم يسبق لها مثيل، حيث سمح للقادة العرب أن يرفضوا بأفواههم غزو العراق دون أن يكون في مقدورهم (بسبب اختلافهم) فعل شيء للحيلولة دون حدوث الغزو. وبالفعل تحركت حاملة الطائرات وأعطى بوش الضوء الأخضر للهجوم على العراق، جواً، وبراً، لتسقط بغداد في يد الأمريكان في أسابيع قليلة ولتبدأ بدخول القوات الأمريكية بغداد هالة الإرهاب النفسي للحكومات العربية، مقروناً بالوعد وبالوعيد، وبالنار وبالحديد: أن "صدام" ليس سوى الخرزة الأولى في عقد طويل ستتناثر حباته الواحدة تلو الأخرى. وفقاً للفلسفة الأمريكية الجديدة. "من ليس معنا فهو ضدنا، ومن هو ضدنا فهو عدونا".

في تلكم الأثناء كان اليمن خارجاً للتو من أربع حوادث مؤسفة، تلت أحداث سبتمبر، أولها: تفجير ناقلة النفط الفرنسية "ليمبورج" قبالة شاطئ المكلا، تلاها قيام طائرة أمريكية بدون طيار باغتيال المواطن اليمني "أبوعلي الحارثي" في صحراء مأرب، والمتهم بوقوفه وراء عملية كول، تلا ذلك حادث اغتيال القيادي الاشتراكي جارالله عمر داخل صالة انعقاد الجلسة الافتتاحية للمؤتمر العام الثالث للتجمع اليمني للإصلاح أواخر ديسمبر 2002م،[39] وبعدها بيومين فقط: مقتل أربعة من الأطباء الأمريكان في مستشفى جبلة المعمداني التبشيري في محافظة "إب".

---

[39]– كنت يومها على بعد أمتار من الحادث في صالة 22مايو الرياضية.

لتتزامن أسابيع الغزو على العراق مع فورة الانتخابات البرلمانية الثالثة في اليمن. والتي أجريت في موعدها المحدد 27 أبريل 2003م. لكن صخب الانتخابات لم يجعل اليمن بمعزل عن متابعة الحدث الكبير المتمثل في غزو العراق.

ورغم أن صالح قد عزز في نيابيات 2003م، (ومن قبلها محليات2001م، ورئاسيات1999م، وبرلمانيات1997) رضى المجتمع الدولي بسبب التزامه بالنهج الديمقراطي، ورغم أنه أيضاً أحرز كحزب حاكم فوزاً كبيراً على المعارضة، وحقق أغلبية كاسحة في مقاعد البرلمان، إلا أن سقوط بغداد كان مؤشراً هاماً في مضمار العلاقة بين الحكومات في الوطن العربي والقوى المعارضة، بحيث بدا للمعارضات أن أخذها بزمام السلطة مسألة وقت لا أكثر. وأنه لا يتطلب جهداً جماهيرياً جباراً ولا حصاداً انتخابياً بقدر ما يتطلب رضى أمريكياً وضوءاً أخضر لتأليب عوامل الاحتقان.

بعد سقوط بغداد شهدت المرحلة تساقطاً مدوياً للقوى السياسية العربية في يد الأمريكان، سلطة ومعارضة، البعض بدافع الخوف من السقوط، والبعض الآخر بدافع الرغبة في أن يكون هو البديل. وهذه هي السمة التي لونت الأوضاع الداخلية والخارجية في المنطقة حتى العام 2006م. وتحديداً نقول 2006 لأن المشروع الأمريكي في العراق كان قد بدأ بالتعري منذ الأشهر الأولى التي أعقبت سقوط بغداد. حيث بانت كذبة أسلحة الدمار الشامل، وبدت الديمقراطية التي يريدها الأمريكيون في العراق مسخاً طائفياً رخيصاً. في حين اشتعلت الأرض العراقية من تحت أقدام الأمريكان وتتالت فضائح الوحشية الأمريكية وفضائح سجن

"أبو غريب" وفساد الشركات الممولة للحرب، كـ"هلبيرتـون" وغيرهـا. وارتفاع الأصوات الأمريكية المنددة بـالغزو، والداعيـة إلى ضـرورة إنقـاذ الولايات المتحدة من المستنقع العراقي الذي ساقها إليه بوش وإدارته.

في العام 2006 بلغ الفشل الأمريكي حداً لا يمكن تغطيته، وبلغ صبر المعارضات سن اليأس؛ إذ الأمريكان محتاجون أصلاً لتجميل صورتهم بعد المأزق العراقي، ناهيك عن سعيهم لمحاولة إسقاط أنظمة أخرى.. أصبحت الحرب على الإرهاب شماعة ثقيلة الوطأة على شعوب العالم، وذلك بعد أن بدا واضحاً للعالم أن الأمريكيين يريدون استخدام هذا الشـعار إلى مـا لا نهاية لتحقيق مآرب توسعية كان بإمكانهم تحقيقهـا دون اللجـوء إلى هـذا الأسلوب.

صدقت القوى المعارضة في الوطن العربي توعدات بـوش، وأخـذتها على محمل الجد! انداحت في أكثر من منطقة في الوطن العربي التمـردات السياسية والعسكرية التي تريد أن تقول للأمريكان نحن سنسهل علـيكم المهمة، ونحن لكم نعم المولى ونعم النصير؛ ومنها ما حدث من أمر التمرد الحوثي في صعدة شمال اليمن، الذي أراد أن ينقل تجربة التحالف الشـيعي الأمريكي لإسقاط صدام في العراق إلى اليمن. وبذلك وحتى هذه اللحظة كانت المرحلة مرحلة درء للمخاطر القادمة مـن علـى مـدرج "الأسـطول الخامس" وحاملة الطائرات التي تقـذف بالقنابـل الذكيـة.. وفي تقـديري وتقدير الكثيرين أن الولايات المتحدة خسرت ما لا تستطيع تعويضه على المدى المتوسط. وأن سياسة بوش قد دمرت كل الأشواط التي قطعتها إدارة كلينتون، الذي اتبع سياسة توغلية هادئة ثقافياً واقتصادياً.

واليمن تبعاً لما مضى أجهد نفسه في أن يثبت للأمريكان أنه حليف مثابر، في جولة "الحرب على القاعدة" وأنه ملتزم قناعة لا تكتيكاً، بالديمقراطية والتعددية وحرية الصحافة واحترام حقوق الإنسان. لكن محصلة هذه الفترة التي نحسبها ستنتهي بخروج بوش من البيت الأبيض، بعد انتخابات نوفمبر 2008م. تبدو قاسية جداً على صعيد الوحدة الوطنية، في اليمن وغير اليمن، وكذا على صعيد التنمية، ومستوى المعيشة. الأهم من ذلك على صعيد التصورات العامة لشعوب المنطقة والعالم التي شهدت رِدّات عدة في مضمار التعايش الدولي، وعانت من انقسامات هائلة جراء خضوعها لتأثير الدعاية المضادة. الأمر الذي أفرز في المحصلة بيئات غير صالحة للترميم على المدى القريب. ناهيك عن تشوه صورة أمريكا لدى الجميع، وصيرورتها وحشاً "عضلاته أكبر من عقله"! يحاول الكل اتقاء شره بشتى الأساليب، ويضمرون له في باطنهم لعناً كبيراً.

نكسة المشاريع الوطنية في ظل نظام القطب الأوحد

بعد انتهاء الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتي نهاية العام 1991م وبدء حقبة النظام الدولي الجديد الذي يحتكم إلى القطب الأوحد؛ كان المتوقع أن تنتهي حقبة التدخل مفسحة الطريق للمشروع الوطني ليأخذ دورته الكاملة في التخلق. لكن ما حدث هو العكس؛ إذ بدا أنه بانتهاء

الحرب الباردة انتهى عامل التوازن وبدأت حقبة التدخل السافر الـذي لا يردعه رادع.

منذ ما يزيد عن عقـد ونصـف لم يعـد متاحـاً للـدول أن تعلـن عـن مشروع وطني يخصها؛ إذ بدأ الأمر بنظام العولمة الذي يفرض علـى بلـدان العالم نزع خصوصياتها وفتح حدودها وأسواقها أمـام البضـائع والأفكـار المعلبة، التي تدوس في طريقها كل ما هو وطني ومحلي، بما في ذلـك برنـامج الإصلاح؛ الذي تعين على اليمن استجلابه من البنـك الـدولي وتطبيقـه على مضض خوفاً من أن يغضب الشـرطي الجديـد الـذي يمسـك بزمـام العالم.. كان على اليمن ذلـك، بـالرغم مـن أن اليمنـيين كـان بمقـدورهم ابتكار أفكار أكثر نفعاً في برنامج الإصلاح (المالي والإداري).

مع هذا فإن سنوات العولـمة (الـتي انتهـت جـذوتها إعلاميـاً بـذهاب كلينتون من البيت الأبيض أواخر 2000)، بدت مع مجـيء بـوش الابـن، وكأنها كانت حقبة ذهبية، مقارنة بالذي حدث بعد ذلك، وبالتحديـد منـذ هجمات الـ11 من سبتمبر2001 التي اتخذتها الولايـات المتحـدة ذريعـة لـ"نقل العدالة إلى العدو" في عقر داره–وفقاً لتعبير بوش–، ليتم بذلك غزو أفغانستان، بعد أن تم دمغ العـرب والمسـلمين بالإرهـاب ورفـع هـذه التهمة في وجه من يتجرأ على معارضـة سياسـة البيـت الأبـيض. وتحـت طائلة هـذا الغضـب الأمريكـي مـن "غـزوة منهـاتن" أمكـن لهـم غـزو أفغانستان ثم التهيئة "المبهررة" للحرب على العراق واحتلالـه وإسـقاط نظامه.

في ظـل هـذا الهـوس المـدجج بترسـانة الأسـلحة وسـطوة الدعايـة الإعلاميـة ارتبكـت حسـابات الـدول في المنطقـة العربيـة؛ ومنهـا بلـدنا

(اليمن)، الذي كان، كما أسلفنا، في مرمى الاستهداف، وبأولوية خاصة من قبل البيت الأبيض، بسبب حادثة كول 2000م، وبمبرر أن زعيم تنظيم القاعدة "أسامة بن لادن" أصوله يمنية وجزء من أتباعه هم من اليمن!

إلى ذلك؛ يعد الموقع الجغرافي لليمن مطمعاً كبيراً تمر منه كل الاستراتيجيات العالمية التي تطمح أن يكون لها دور في لعبة الأمم، ومن شأن تحد كهذا، ألا ينوء به الرئيس أو الحزب الحاكم فقط؛ بل يستدعي تكاتف السلطة والمعارضة، وهو ما لم يحدث البتة. لأن الفريقين، في تقديري، لم يحرص أيٌ منهما على مجابهة التحديات بروح الفريق الواحد..

أطوار العلاقة بين الرئيس والمعارضة

إلى العام 2002م كان لا يزال الرئيس علي عبدالله صالح في خطاباته وحواراته يمدح المعارضة ويصفها بالوطنية، لكن هذا الأمر خفت تماماً فيما تلا ذلك من السنوات، مع ضرورة التأكيد على أن تجربة اللقاء المشترك كحاصل تقارب بين الإسلاميين وقوى اليسار والقوميين يعد مكسباً وطنياً هاماً، وكان بإمكان المشترك أن يكون أكثر نفعاً لو أنه تعامل مع الأمور بمسئولية أكبر، وأسهم في تهذيب لغة التنافس السياسي والرقي بها بما لا يجعلها ماكينة مدمرة على النحو الذي بدا في السنوات الماضية.

أما الإصلاح، فبالرغم من أنه اكتسب أدوات سياسية تحريضية شتى انتقلت به من كونه جماعة ضاغطة إلى كونه حزباً سياسياً.. إلا أنه في

المقابل وقع في ارتباك من نوع جديد، حيث أدى هذا الزخم من الأداء المعارض إلى افتقاد الإصلاح مشروعه الثقافي، الذي اكتسب بسببه، فيما مضى، هذا الحجم الجماهيري،، بل اندفع إلى طروحات سياسية تناقض طروحاته المتمثلة في الدعوة إلى قيم الصبر وإحياء مفاهيم التوكل والإنتاج والروية والإيمان بأن الرزق بيد جبار السموات والأرض، وبأن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وكذلك تمثيله للقضايا القومية والإسلامية الذي أكسبه احترام الأنصار والخصوم، لكنه في غيبوبة هذا الصراع الحزبي وضع نفسه في "المناطق الخضراء" من كل أوجاع الأمة، والتبست عليه الرؤية بين الوظيفة التوعوية التي تميز بها والأداء السياسي المفترض منه. الأمر الذي انحصر معه العلماء في صوامعهم، وغاب الخطاب التنويري الراشد الذي يزرع العفة في النفوس، ويمجد قيم الصبر والمثابرة والمجاهدة والدفع بالتي هي أحسن. وكان لغياب مثل هذا الخطاب، على امتداد هذه السنوات، أثره في تنامي حالة من الإخفاق المجتمعي والقنوط الشبابي والتشوه الأخلاقي. ليأتوا بعد طول سبات.. يتحدثون عن هيئة للفضيلة.

ورغم ذلك كله لا يزال التجمع اليمني للإصلاح هو الحزب الذي يمتلك أكبر قاعدة حية وفاعلة من الأعضاء المنضوين الذين يتمتعون بقدرة على القيام بأصعب الأداءات بأقل التكاليف، كما أن الأنساق الجديدة منهم يتمتعون بقدرة على التجدُّد وبقابلية كبيرة للآخر وهو ما يميز كذلك قاعدة الحزب الاشتراكي اليمني التي كان لها دور كبير في محاصرة أزمة الاحتجاجات الأخيرة 2007 وبداية 2008م في المحافظات الجنوبية وجعل الحراك منضبطاً بالإيقاع الوحدوي بعد أن كاد يضيع في أتون الشعارات الضيقة.

الديمقراطية.. أعراس وأوجاع

من البدهي الإقرار أن الشخصية اليمنية ديمقراطية بالفطرة، وأن اليمن قبل استعادة وحدته 1990م، كان قد خطا، شماله وجنوبه، خطوات ملموسة باتجاه الديمقراطية. كان من ثمارها انتعاش أضخم عملية حوار في التاريخ اليمني تكللت برفع علم دولة الوحدة، ظهيرة يوم الثلاثاء 22مايو 1990م، متزامناً مع إقرار التعددية العلنية والتنافس الديمقراطي للوصول إلى السلطة.

وباعتقادي، أن اليمنيين حينما أقدموا على نقلة كهذه، لم يكونوا مستشعرين لضخامة التبعات الناجمة عنها؛ إذ طالما وارتضت القوى السياسية الصندوق حكماً فيما بينها، ووسيلة وحيدة للوصول إلى مناكب الحكم، فهذا يستدعي على الطرف الخاسر الانسحاب إلى صفوف المعارضة، أياً كان إسهامه في إنجاز الوحدة أو كيفما كان حجمه في نظام ما قبل 90م. شمالاً أو جنوباً. ولأن أمراً كهذا، من السهل القبول به من الناحية النظرية، لكن من الصعب تقبله عملياً، فإن حرب 94م كانت محصلة أولى لتقديم العاطفة على العقل.

دخلت الأطراف السياسية أول تنافس حزبي في برلمانيات 93م وليس بإمكان أيٍّ كان التنبؤ بنتائجها، وكان الرئيس علي عبدالله صالح يستشعر صعوبة ما ستحتمه النتائج، سواء فاز المؤتمر أو الاشتراكي، فطرح على الحزب الاشتراكي، من جديد، مناقشة فكرة الدمج بين حزبي الائتلاف بعد الانتخابات، أياً كانت نتائج كل منهما، ليظل شريكا الوحدة حزباً حاكماً تنافسه بقية الأحزاب. وبذلك تستمر الديمقراطية وتقل المخاطر، لكن الأحداث سارت باتجاه المواجهات العسكرية، التي تحالف فيها المؤتمر مع الإصلاح، لدحر ما اتضح أنه انقلاب على شرعية الصندوق وإرادة الشعب.

الإصلاح يرفض الاندماج مع المؤتمر

أثناء الحرب، وتحديداً حينما أوشكت مؤشرات الغلبة أن تكون في مصلحة تحالف الشرعية، طرح صالح على الإصلاح فكرة الاندماج في حزب واحد وذلك بعد أن تضع الحرب أوزارها، لكن الأخير، وبمجرد انتهاء الحرب، قام بعقد مؤتمره العام الأول 20 سبتمبر 1994م، الذي رسخ فيه بناه التنظيمية، كرد عملي يرفض دعوة الرئيس ويوحي بأن الإصلاح كانت له حسابات أخرى، من قبيل، أن خصمه الأيديولوجي ذا البناء التنظيمي القوي (الاشتراكي) قد ذهبت ريحه، وانكسرت شوكته، وبالتالي ما الذي يجبر الإصلاح على أن يندمج بحزب ضعيف من الناحية التنظيمية، مثل المؤتمر الشعبي العام. وبالتالي بدا لقادة الإصلاح أن استحواذهم على السلطة وإزاحة المؤتمر ليس إلا مسألة وقت. وكان هذا

التصرف مؤلماً للرئيس وللمؤتمر، الذي سارع بعد انعقاد مؤتمر الإصلاح بعقد مؤتمر عام خامس للمؤتمر الشعبي العام بذات النفسية التأهبية، نتج عنه تصعيد قيادة مؤتمرية من النوع الذي لا يؤمن حتى بالتقارب مع الإصلاح.

وعليه، وبدلاً من أن يعمل التحالف المنتصر في 94م على إزالة آثار الحرب في المحافظات الجنوبية، وعلى تضميد جرح الحزب الاشتراكي دخلت البلاد من يومها وإلى الآن في "سُعار" تنافسي محموم، بين المؤتمر والإصلاح أتى على الأخضر واليابس، مما لم تأت عليه نيران الحرب. وكان مثل هذا التنافس الحاد آخر ما يحتاجه اليمن في ذلك التوقيت.

حرص الرئيس علي عبدالله صالح، من خلال انتخابات 1997م وما بعدها، على أن يوصل رسالة صريحة للإصلاح، مفادها أنه ليس عاجزاً عن تحجيمه بالديمقراطية وركله من مربع السلطة بواسطة الصندوق؛ وأن دعوته للاندماج هي من قبيل مصلحة البلاد وليس من قبيل الضعف، وقد نجح المؤتمر في ذلك ببراعة واضطراد لافتين، ما أدى إلى تحالف الإصلاح مع بقية أحزاب المعارضة بعد سنوات من خروجه من السلطة في إطار عُرف بـ"اللقاء المشترك"، الأمر الذي أعطى للتنافس زخماً جديداً؛ بحيث غدا "العراك" الحزبي "ثقباً أسود"، يلتهم كل مقدرات الحياة السياسية، وينهك أعصاب البلاد. وسبق أن أشرنا إلى أن أجواء ما بعد سقوط بغداد صبت الزيت على نار العلاقات المتوترة بين الأحزاب الحاكمة والمعارضات في الوطن العربي.

مشكلة هذا التنافس أنه جاء قبل أوانه بكثير، واليمن لم يزل يعاني تركات ثقيلة وملفات وطنية واقتصادية مفتوحة ومزاجاً دولياً لا يرحم،

علاوة على كونه هو الأول من نوعه؛ لم تسبقه تجارب تتكفل بترشيد الأداء الحزبي وتوفر لليمنيين خبرة كافية يستطيعون معها التمييز بين ما هو طبيعي وما هو مضر، بين الحقول الصالحة للتنافس والقضايا التي لا تقبل المزايدة، بين الخطاب التعبوي المنضبط وبين الشحنات العاطفية والمكائد السياسية التي تضر الجميع، سواء من قبل من هم في الحكم، أو القابعون في دكة الاحتياط.

المؤتمر يعتمد على قوى الحشد على حساب قوى الكفاءة

كان المؤتمر، كما أسلفنا، حريصاً على استنفار كافة قواه ليزيح عن نفسه كابوس المخاوف من أنه ليس حزباً تنظيمياً عريقاً، وبالتالي أدى ذلك إلى اعتماده على قوى الحشد الاجتماعي والجماهيري التي تضمن له مقاعد في البرلمانيات والمحليات، وتملأ الصناديق بـ"الخيول"[40] ومن ثم تحصل هذه القوى على مكافأتها بعد إعلان النتائج، مواقع ومناصب في الحكومة حتى وإن لم تكن تجيد من العمل الإداري إلا شيئاً بسيطاً. وهذا جعل محصول التنمية الإدارية للمؤتمر متواضعاً وحال دون استكمال ترسيخ دولة مؤسسات. كما كان له أثره السلبي الفادح جراء وصول سياسة الإزاحة المؤتمرية للإصلاح إلى ساحة التربية والتعليم فضلاً عن ممارسات عدة قامت بمضايقة كثير من القيادات الإدارية والوسطى والموظفين في مرافق الدولة بسبب عدم انتمائهم للمؤتمر الشعبي العام.

---

40 – "الحصان" هو الرمز الانتخابي لحزب "المؤتمر الشعبي العام"، و"الشمس" رمز "التجمع اليمني للإصلاح"، "السنبلة" رمز "الحزب الاشتراكي"، "الهلال" رمز"التنظيم الوحدوي الناصري".

وهكذا دواليك، انتخابات بعد أخرى، ومكافآت تلو الأخرى، إلى أن تراجعت نسبة أصحاب الكفاءات في الجهاز الحكومي بشكل كبير، نتج عنه كثرة التغييرات في الوجوه الوزارية والقيادات الإدارية في السنوات العشر الأخيرة.. وأضحى الفساد أمراً شاخصاً يتحدث عنه الحاكم والمعارض، في ذات الوقت الذي يزداد تذمر القوى التي يطول انتظارها في دكة الاحتياط بلا طائل.

وفي زحمة هذا كله؛ ذهل اليمنيون عن ضرورة وضع مشروع وطني يعمق الوحدة في النفوس ويرسخ أشواق اليمن الجديد ويستوعب الجميع في كلياته وجزئياته، الأمر الذي أمكن معه للمشاريع الصغيرة أن تطل برأسها من جديد، كمحصلة حتمية لغياب المشروع الوطني الجامع. ووفقاً للكاتب العربي الكبير ناصر الدين النشاشيبي، "فإن الأمر الأكثر مرارة في أوضاع اليمن شديدة التخلف قد تؤدي مناخات الحرية في ظل ضعف النظام السياسي إلى الفوضى وبروز نزعات يمكنها أن تقود إلى متاهات تمزق جديدة وصراعات يغذيها الإرث الإمامي".[41]

فمؤكد أنه حين تغيب ثقافة الوحدة تحل ثقافة التشطير، وحين يغيب فكر الثورة تطل أساطير الكهنوت، وحين يغيب مشروع الداخل يتسلل مشروع الخارج، وهذا ما حدث بالفعل.

---

[41] – انظر "اليمن ذلك المعلوم" ، ناصر الدين النشاشيبي، ص50 دار القدس.

انتهازية المشترك بعد 11 سبتمبر

ربما كانت أول صدمة جوهرية بين السلطة والمعارضة، حينما استغلت المعارضة قضية احتلال أريتريا لأرخبيل حنيش ديسمبر 95م. وجعلتها أداة للحط من أداء السلطة والتعريض بصالح، واتهامه بالتفريط والبيع والتهاون ثم تأليب الرأي العام المحلي عليه، في حين أن من يستعيد أجواء ما بعد 7 يوليو 1994 يدرك أن احتلال أريتريا لحنيش كان فخاً خبيثاً، وقفت وراءه الأطراف التي أغاظها انتصار "تحالف الشرعية" واعتبرت ذلك الانتصار وكأنه هزيمة لها هي، وليس للأطراف المحلية التي أعلنت الانفصال.

كان يراد من فخ حنيش أن يقوم صالح بتحريك طائرة هيلوكبتر واحدة لتحرير الجزيرة من بضعة عشر محتلاً أريترياً! لتكون هذه شرارة حرب بين دولتين تفصل بينهما مياه دولية، وستتكفل الأطراف المغتاظة بدعم أريتريا وتصوير صالح إعلامياً وكأنه وحش يمشي على خطى هتلر وصدام حسين؛ قام بالتهام دولة الشطر الجنوبي، وها هو ذا يسعى إلى اكتساح أوسع امتداداً!! وحينما لم يقم صالح بهذه الخطوة، وفضّل حل المسألة بالتحكيم الدولي تكفلت العديد من الأصوات الإعلامية بشن حملة عنيفة ضده، مؤداها "أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة"!

من هنا، كان من الحكمة البالغة ومن التوفيق الكبير أن اليمن لم يلقف الطعم وانتهت الأزمة بسلام وعادت حنيش عن طريق التحكيم الدولي في 9أكتوبر1998م؛ غير أن موقف المعارضة من هذه الأزمة وجعلها مضماراً لتسديد الأهداف القاسية في مرمى صالح، قد وضع النواة الأولى في مسألة التأزم النفسي بين صالح وخصومه السياسيين المتمثلين في الإصلاح والمجلس الأعلى لأحزاب المعارضة والتي اندمجت فيما بعد مع الإصلاح مكونة "اللقاء المشترك"، الذي كرر، بدوره، نفس الموقف بعد أحداث الـ11 من سبتمبر، وتعامل مع التهديدات الأمريكية بصورة غير وطنية، بل بصورة انتهازية لم تستطع معها الأحزاب أن تخفي بسمتها من هذا المأزق الذي وقع فيه "يمن علي عبدالله صالح"؛ فبدأت تتبنى خطاباً هجومياً لا يقال إلا ضد شخص مؤكد سقوطه على يد الخارج.

بعد حادثة كول (التي أعقبت الانتخابات الرئاسية الأولى بسنة) سارع صالح إلى إجراء انتخابات محلية في 2001م، كان من بين أهدافها كسب رضا الخارج الغربي عن طريق تأكيد مضي اليمن في درب الديمقراطية، وأبدى الإصلاح حينها مع أحزاب المشترك رغبتهم في المقاطعة لإفشال هذا الهدف، وحينها عقد التجمع اليمني للإصلاح دورة استثنائية لأعضاء مؤتمره العام للبت في قرار المقاطعة.. ليتفاجأ الإصلاحيون بمجيء الرئيس صالح إلى قاعة المؤتمر يطلب منهم خوض غمار الانتخابات. وهو ما تم الموافقة عليه.

في أواخر العام 2002م تزامن الإعداد للحرب على العراق مع استعداد اليمن لإجراء الانتخابات النيابية الثالثة في موعدها المحدد أبريل 2003م، وشهادة للتاريخ، أتذكر تشديد صالح المتواصل في تلك الفترة

على ضرورة "الاصطفاف الوطني" لمواجهة التحديات التي تواجه البلد، وأتذكر، كيف أن صحف المعارضة تهكمت من هذه الدعوة أيما تهكم، وحولت مفردة الاصطفاف إلى نكتة صحفية مجسدة في المقالات المستهزئة ورسوم الكاريكاتور بالغة السخرية.

اندلاع زوبعة التوريث وتمرد الحوثي

تمت انتخابات 2003م على خير، لكن الأجواء الدولية لم تجعل الفائز فيها، وهو المؤتمر الشعبي العام، يتذوق طعم الفوز، كما خففت من وطأة الخسارة على المعارضة التي رسخت تراجعها إلى الخلف، رغم دخولها الانتخابات بقائمة موحدة. في تلك الفترة كانت مشاهد العراقيين وهم يلطخون صور الرئيس العراقي السابق صدام حسين تملأ القنوات الفضائية وصفحات الصحف، وتفعل فعلها العميق في وعي النخبة السياسية الحاكمة والمعارضة، في عموم أرجاء الوطن العربي، لتبلغ المأساة منتهاها بالقبض على الرئيس العراقي صدام حسين، وهو بتلك الهيئة الرثة، ثم إخضاعه للمحاكمة وصولاً إلى إعدامه صبيحة عيد الله الأكبر، في مهزلة طائفية لا يصح معها التشفي لدى النفوس الحرة، بغض النظر عن موقفها من صدام.

يجدر بنا التذكير بأنه عقب غزو بغداد بأشهر ارتفعت وتيرة الهجوم الشخصي ضد الرئيس علي عبدالله صالح في صحف المعارضة واندلع ما عرف، حينها، بـ "زوبعة التوريث"، التي أديرت بطريقة لا تهدف إلى معالجة هذه المشكلة الافتراضية "التوريث"، ولا تسعى إلى انتزاع وعد أو

تشريع يقضي بعدم التوريث؛ وإنما كان الغرض منها تأليب عوامل الاحتقان ضد علي عبدالله صالح.

وفي زوبعة التوريث، اندلعت مواجهات صعدة، بين القوات الحكومية وأتباع الحوثي، وكانت سيرورة التغطية الإعلامية في بواكير أزمة الحوثي تحاول الربط ما بينها وبين التوريث، بتصوير أن هذا التمرد، الحوثي، وكأنه جاء كرد فعل على نية التوريث، بزعم أن الهاشميين أغاظهم نكوص صالح عن مبادئ الثورة! فقالوا إن كان الحكم سيعود بالتوريث فنحن به أولى، لأننا على الأقل نمتلك سنداً شرعياً ودينياً لا يمتلكه صالح!!

أغرى التحالف الإيراني الأمريكي لإسقاط صدام في العراق بعض القوى التي كانت لم تزل تحمل الحنين الإمامي؛ والتي انسلخت من الزيدية إلى الجعفرية الإثنى عشرية[42]، فبادرت بتفجير الوضع بطريقة تصعيدية ديماغوجية، الغرض منها إيصال رسالة إلى الولايات المتحدة الأمريكية مفادها أن مهمتهم في اليمن ستكون أسهل وساعد ذلك في اقتناع بعض الدوائر الأمريكية بأن الحل الأمثل لمواجهة تنظيم القاعدة هو تشجيع الانبعاث الشيعي المسلح الذي سيتكفل بضرب القواعد المتدينة ببعضها. وهو للأسف ما حدث في العراق.. هذا الأمر هو الذي اضطر السلطة–في تقديري– إلى التعامل الحذر مع أزمة صعدة؛ بحيث يتم حصر التمرد في بقعته الجغرافية التي انطلقت منه، وعدم تمكينه من التوسع وفي نفس

[42] – تعزز التواصل بين القوى الإمامية وطهران بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران 1979م واعتمادها مبدأ "تصدير الثورة".. ولمزيد من الإلمام بقضية التمرد الحوثي في صعدة يمكن الرجوع إلى كتابنا: "الزهر والحجر" التمرد الشيعي في اليمن وموقع الأقليات الشيعية في السيناريو الجديد. مركز نشوان الحميري للدراسات والنشر.

الوقت عدم القضاء عليه تماماً، مخافة أن يكون الحسم العسكري هـو الفـخ الجديد الذي يراد به إيقاع علي عبدالله صالح بعد أن نجا من فخ حنيش.

هذه المرة أيضاً، اعتبرت المعارضة أن الخطر يخص الرئيس علي عبدالله صالح وحده، وأن كل ما يدور هو هدية سـاقتها الأقـدار للمعارضـة لكـي تصل إلى منصة الحكم دونما حاجة إلى انتخابات أو دوشة..

ملامسات حول تداول السلطة
وسياسة الرئيس

تحدثنا في صفحات متفرقة من هذا الكتاب كيف أن عودة الحكم إلى اليمنيين بعد حرمانهم منه قروناً طويلة يعد إنجازاً كبيراً بحد ذاته. مهما رافقه من سلبيات. وعليه فإن المهمة لم تكن سهلة؛ إذ لم تخلف الإمامة والاستعمار ميراث دولة، كما لم يعملوا على إرساء تقاليد حكم. ليأتي الوضع التشطيري بعد ذلك بواقع مشوه يحاول ترسيخ دولتين وتقاليد حكم مغايرة لبعضها البعض!!

"حب الزعامة"..جذر النكسات منذ ما بعد الثورة

كان يفترض أنه بمجرد ذهاب الإمامة والاستعمار، سيهتدي اليمنيون إلى حلحلة أوضاعهم وترميم وجدانهم وإعادة تأهيل الهوية الوطنية بشكل تلقائي.. لكن اليمن، بعد التحرر من الإمامة والاستعمار شهد دورات خيبة وعنف، ربما كان آخرها حرب 94م. ولدى العودة والاستقراء السليم سنجد أن كل هذه المآسي ما كان لها أن تحدث لولا وقوع اليمنيين المتكرر في فخ الصراع على قمة السلطة.

لقد حرم اليمنيون من الحكم قروناً.. فأرادوا حين استعادته أن يحكموا جميعاً في وقت واحد!! يمزقهم الجزع.. وهذا نراه منذ الأيام الأولى لقيام ثورة سبتمبر التي سعى طرف فيها إلى إزاحة طرف آخر؛ بل إن البعض يذهبون إلى أن مهندس الثورة علي عبدالمغني جاءته رصاصة غادرة من الخلف..

نفس الشيء ينطبق على ثورة الكفاح المسلح ضد المستعمر، حيث حال حب الزعامة دون أن تنصهر الفصائل المقاومة في بوتقة واحدة.. وأصر قادة الجبهة القومية على ألا ينصهروا في كيان تحريري واحد مع الفصائل التي كونت جبهة التحرير.. وهذه هي الثغرة التي نفذ منها الاستعمار، مشعلاً بين الطرفين حروباً دامية وصراعات مزمنة بعد أن أمر الجيش الاتحادي التابع له بمهاجمة جبهة التحرير قبل الجلاء بأيام..

حب الزعامة كان هو الآخر سبباً في انفراط عقد المجلس الجمهوري أيام الرئيس عبدالرحمن الإرياني في الشطر الشمالي، ومغادرة نائبه أستاذ الحركة الوطنية أحمد محمد نعمان إلى بيروت وتصريحه من هناك أن الشعب اليمني يريد عودة الإمام!!

كذلك كان حب الزعامة هو السبب وراء قيام مجموعة من قيادات الجنوب بالإطاحة بالرئيس قحطان الشعبي وحبسه حتى الموت.. وكان قحطان الشعبي كما ذكرنا مستشاراً للرئيس السلال منذ الأشهر الأولى لقيام النظام الجمهوري في صنعاء.. ولكن حب الزعامة أدى به إلى قبول مفاوضات أحادية مع البريطانيين أصبح بموجبها أول رئيس لدولة الشطر الجنوبي وانتهى به إلى السجن..

كذلك يعد حب الزعامة هو الفخ الذي وقع فيه أحمد الغشمي وقتل بموجبه الرئيس ابراهيم الحمدي.. تماماً كما كان حب الزعامة هو السبب

الذي دعا بعض القيادات في الجنوب إلى تدبير الحقيبة المفخخة التي اغتالت الغشمي لتكون مبرراً للإطاحة بالرئيس سالم ربيع علي، وما لبث هؤلاء أن تنازعوا بينهم بدافع حب الزعامة، وبموجبه تم إزاحة الرئيس عبدالفتاح اسماعيل وصعود علي ناصر محمد الذي ركز بيده جميع السلطات، كرئيس للدولة، ورئيس للوزراء، وأمين عام للتنظيم السياسي الحاكم (الحزب الاشتراكي اليمني)، وما لبث حب الزعامة أن تسبب بمجزرة دامية في عدن 13يناير1986م الأمر الذي جعل اليمنيين بعد هذه السلسلة الدموية المريعة يبدون في نظر العالم متخلفين سياسياً.. لا يمكن الوثوق بهم؛ نستشف ذلك من العبارة التاريخية التي قالها الزعيم الكوبي "فيدل كاسترو" في المؤتمر العام للحزب الشيوعي السوفيتي 1987م.. حيث توقف أثناء مروره على وفد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بقامته الفارعة ولحيته الكثة وهيبته الطاغية.. قائلاً: "متى ستتوقفون أيها الناس عن قتل بعضكم البعض؟!!"

هناك نقطتان وحيدتان تخلى فيهما اليمنيون عن حب الزعامة؛ الأولى عندما تنازل القاضي عبدالرحمن الإرياني عن الحكم مقدماً بذلك خدمة جليلة لليمن بمجيء حركة 13 يونيو 1974م، التي أحدثت تغييراً حقيقياً في اليمن شماله وجنوبه.. أما المرة الثانية فكانت في العام 1990م التي قامت بموجبها الوحدة.. لكن رِدة سريعة حدثت بسبب حب الزعامة، أدت إلى أزمة وحرب 94م.

ولعل اليمنيين بعد كل هذه الدروس قد استوعبوا أهمية أن يجعلوا حب الزعامة يسير فيهم بطريقة مقننة وسلمية.. وهو الأمر الذي تجسد منذ 1994 وتجلى بشكل كبير في الانتخابات الرئاسية الثانية سبتمبر 2006م.

التي مارس فيها اليمنيون تنافساً سلمياً رائداً على مستوى المنطقة.. لكنه لم يخلُ من ميراث العنف اللفظي.. وكنت متألماً حينما سمعت المهندس فيصل بن شملان في حفل تكريمه من قبل المشترك يقول: "لن أبارك".. بنفس القدر الذي لم يكن مناسباً أن يقوم الرئيس الرئيس علي عبدالله صالح في المؤتمر الصحفي الذي سبق الانتخابات بيوم برفع صورة يظهر فيها منافسه فيصل بن شملان وهو إلى جوار حارسه "الذرحاني" المتهم بالإرهاب، والذي برأته المحكمة بعد ذلك من هذه التهمة..

في ظل كل ما سبق يمكن القول أن بقاء الرئيس علي عبدالله صالح ثلاثين عاماً إلى الآن في سدة السلطة ودخوله عقداً رابعاً في الحكم يعد إنجازاً بحد ذاته.. مهما عده البعض منافياً للأعراف الديمقراطية.. ذلك أن البلد كانت أحوج ما يكون لأن تعرف طعم الاستقرار السياسي بعد مسلسل الصراع الدموي على منصب الرئيس ثم إنها لم تزل تتهجى الأحرف الأولى في مشوار الديمقراطية ولّما تصل بعد إلى مرحلة قطف الثمار وإنما لم تزل في مرحلة التأسيس؛ وطبيعي جداً أن الأعراف لا تنطبق كثيراً على مرحلة التأسيس، على أن زوبعة التوريث التي أثيرت في 2004م قد حاولت أن تفسد على اليمنيين ما قطعوه من مراحل في مسألة الحكم، وحاولت بشكل غير مباشر أن تعيد أذهان الجميع إلى ما قبل الصفر. وباعتقادي أن الرئيس علي عبدالله صالح كان حصيفاً في تعامله مع هذه المشكلة؛ إذ ليس من المنطقي ولا من الديمقراطي أن يحرم أي مواطن من الترشح لمنصب الرئاسة طالما الصعود إلى هذا المنصب يتم بالانتخابات المباشرة والتنافس العلني وليس الاستفتاء أو الوراثة، وبالتالي فإن الشعب هو صاحب القرار مهما حاولت أي سلطة حاكمة تسخير

الموارد العامة لإقناعه بمرشح ما.. سواء كان ابن الرئيس أو غيره.. ذلك أن الحديث عن التوريث فيه استعباط كبير للشعب وإلغاء مجحف لإرادته.

لقد أصبح الأمر بيد الشعب وهذا باعتقادي هو أفضل منجز عمل علي عبدالله صالح على ترسيخه ويجب على الشعب اليمني ألا يمكن بعض القوى السياسية من إفساد هذا الأمر.. فالقائد الحقيقي هو من سيفرض نفسه ويكسب قناعة الناخب.. سواء كان أحمد علي عبدالله صالح أو غيره.. وهنا علينا أن نستعيد أجواء انتخاب الرئيس علي عبدالله صالح في 17 يوليو 78م، الذي لم ينحدر من سلالة أئمة ولا رؤساء ولا قضاة ولا مشيخ وإنما انحدر من سلالة الحراث وكان أبوه فلاحاً عادياً مات و"علي" لم يزل في التاسعة ولم يورثه سوى مشروعية الكد وجرأة المحاولة.

الشعب اليمني لا يستطيع أبداً أن يسيطر عليه مستبد؛ وإنما يستطيع دجال أن يخدعه، وأجمل ما في علي عبدالله صالح أنه قدم نفسه باعتباره واحداً من أبناء هذا الشعب وليس شيئاً متميزاً عنهم. لا يجب بأن يمدح معصوماً أو خارقاً أو فلتة من فلتات الزمان، ولكن يجب بأن يوصف بأنه حارس أمين وقائد وحدوي يجسد طموحات هذا الشعب.. ولذا فمن الواجب على اليمنيين أن يخلصوا أذهانهم من بقايا التفكير الإمامي الذي يقوم على فرضية غباء الشعب ومواته، وعلى أي يمني يطمح إلى مقعد الرئاسة أن يعمل حساب الشعب باعتباره أصبح الرافعة الوحيدة إلى سدة الحكم.

لقد كان علي عبدالله صالح مسروراً بالفعل حينما حصد نسبة 77٪ في انتخابات حامية الوطيس، أثبت الشعب فيها مقدرته السريعة على

استعادة الشورى وتطبيق دروس الديمقراطية. بل كان البعض يظنون أن صالح نفسه قد يصبح كبش الفداء الأول لهذه التجربة.

ولنعد إلى النقطة الأولى التي ابتدأنا به هذه الجزئية وهي حب الزعامة.. التي أخرت اليمنيين كثيراً، وجعلت تاريخهم الحديث محتوياً على بعض الشوائب والنقاط السوداء، لأقول إنه من تمام الإثراء لهذه الفكرة التأكيد على أن مآسي اليمنيين في هذا الصعيد لم يكن "أغلبها" ناجماً عن حب الزعامة من قبل الشخص الواقع في سدة الحكم بل من قبل الأشخاص المتربصين به. وفي كل البلدان التي تحترم نفسها والتي قطعت أشواطاً في مجال التنمية والديمقراطية والحضور الدولي عندما يصعد شخص ما إلى سدة الحكم بطريقة دستورية، فإن الآخرين لا يفكرون حتى مجرد التفكير في التآمر عليه. وبالتالي يتيحون له ولأنفسهم العمل من أجل البلد إلى مجيء الانتخابات تصعد حمى التنافس. لكن في اليمن منذ 93 وحتى اليوم موسم انتخابي ممتد!!

الحاصل في بلادنا أن الرئيس علي عبدالله صالح مدد لنفسه فترة الحكم ولكن بطريقة دستورية.. على أنني –كمراقب– لا أجد بتاتاً أي صعوبة في أن تعمل القوى السياسية الحاكمة والمعارضة على الاستفادة من طبيعة علي عبدالله صالح ومن رصيده التاريخي الكبير؛ بحيث سيمكنهم معه الانتقال بمفهوم التداول السلمي للسلطة من خانة النظرية إلى خانة التطبيق، لكن هؤلاء لا يريدون له أن يحرز هذا الانتصار. بل ويعملون على دفعه إلى مربعات احترازية شتى.. بسبب إصرارهم على أن يقترن التداول السلمي للسلطة بسلب علي عبدالله صالح كثيراً من رصيده المعنوي أمام الشعب. الأمر الذي يضعه أمام امتحان صعب، لهذا، أجد من

الضرورة بمكان أن يدخل المثقفون لتسوية المعادلة.. بحيث تؤدي الحرية إلى إنصاف علي عبدالله صالح، وهي إن لم تحقق ذلك، فإن الذي سيخلفه على سدة الحكم سوف يقوم بإلغائها.. حتى وإن أبقى عليها كديكور كاذب..

في 17يوليو2005م أعلن الرئيس علي عبدالله صالح أنه لن يعيد ترشيح نفسه وأنه قد تعب من الحكم، وقال بأن على اليمنيين أن يتدبروا أمرهم ويختاروا رئيساً جديداً، ولمس الكثيرون في كلامه قدراً كبيراً من الجدية، لكن خصومه كانوا هم الأخوف من أن يمضي قدماً في عدم ترشحه فراحو يشككون في صدقية ذلك الإعلان.. حتى وإن كان صالح يومها يريد أن يضع اليمنيين أمام أمر واقع وأن يعاتبهم بطريقة غير مباشرة، على ما يطال شخصه (وليس موقعه) في الصحافة من نقد جارح ولو كان اليمنيون يومذاك يرون أن الأجواء صارت مهيأة للانتقال السلمي للسلطة لكان مثل ذلك الإعلان من قبل الرئيس أفضل فرصة لإنجاز التداول.. لو كان اليمنيون لحظتها محتاجون لقائد آخر لانتهزوا الفرصة.. علما أن إعلان علي عبدالله صالح كان مفاجئاً حتى لأقرب المقربين منه، الذين كانوا مندهشين أكثر من غيرهم من ذلك الإعلان.. وبعد ذلك التاريخ بحوالي عشرة أشهر عقد المؤتمر الشعبي العام دورة استثنائية لأعضاء مؤتمره العام في العاصمة صنعاء وذلك من أجل تحديد مرشح باسم المؤتمر في الانتخابات الرئاسية 2006. ويومها كانت المفاجأة أكبر حيث أكد صالح من جديد مضيه في عدم الترشح، ووجه يومها نقداً لاذعاً لمناصريه الذين يتعاملون معه ، كما وصفهم، "وكأنه سائق أجرة يقوم بإيصالهم إلى حيث يريدون" ولا يقومون بما عليهم من مهام وطنية تخفف عنه وعن الشعب أعباء التحديات. وانفضت تلك الدورة وصالح لم يزل مصراً على رأيه،

وبالتالي فوت على أعضاء المؤتمر الشعبي العام أن يكونوا هم السبب في إقناعه..

مر الكثيرون على هذه القصة مرور الكرام ولم يعطوها حقها من الدراسة والمناقشة.. لقد قبل صالح بعدها الترشح بعد احتشاد شعبي كبير، ومعد مسبقاً، في ميدان السبعين في العاصمة صنعاء. لكنه في اعتقادي اكتسب الكثير من المعرفة جراء ذلك الاختبار ويبدو أنه اكتشف بفعل تلك الحركة أنه حالياً: لا أحد!!

ومن الملفت أنه أصر على تضمين برنامجه الانتخابي وعداً بتقليص مدة الدورة الرئاسية من سبع إلى خمس سنوات (علماً أن الدستور ينص على أنه يحق للرئيس الحكم لدورتين رئاسيتين فقط). وكان سؤال الصحفي أحمد منصور للرئيس في برنامج "بلا حدود" في قناة "الجزيرة" أثناء الحملة الانتخابية 2006. أن المعارضة تقول أن الغرض من هذا التعديل هو التمهيد لحكم دورتين قادمتين معاً؛ بحيث يتم احتساب مدة الحكم من تاريخ التعديل الأخير، فجاءت إجابة الرئيس علي عبدالله صالح في منتهى الدهاء، أنهم إذا كانوا يفهمون الأمر كذلك فـ"بعدهم" أي فلا مانع.

عندما صعد الرئيس علي عبدالله صالح إلى سدة الحكم قبل ثلاثين عاماً من الآن.. كان أمامه مشروع واضح، وهو مشروع حركة 13 يونيو التي كان الرئيس علي عبدالله صالح أحد أركانها ورموزها.. وضعت هذه الحركة أجندة للتحرك في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي؛ وفقاً لظروف معينة تتمثل في نظام عالمي ثنائي القوة ونظام يمني ثنائي الإدارة ونجح علي عبدالله صالح أيما نجاح في السير على هدى هذه الخارطة التي لم تتجدد بعد العام 1990 الذي تغيرت فيه المعادلة الداخلية والخارجية.

أصبحنا نعيش في يمن واحد، وقطب عالمي أوحد ومزاج دولي جديد.. لم يحاول المجموع اليمني استنباط ما يريده في ظل هذا الوضع الجديد، وكيف يمكن انجازه وفقاً للظروف الدولية الجديدة. مع ذلك فقد وجد الرئيس علي عبدالله صالح نفسه أمام جملة من الملفات والتحديات والمآزق استطاع أن يحرز في الكثير منها نجاحات لافتة وإن لم يستطع جهازه الدعائي جعل همومه الكبرى هموماً يستشعرها المجموع اليمني وبالتالي يستشعر حجم النجاح الذي تم إحرازه فيها..

يذهب المفكر اليمني أحمد قائد الأسودي في كتابه "الحاكم" إلى أن "الحاكم الحالي، لأي وطن، هو الأحسن لحظتها في ناس ساحة الوطن، مهما وجد في ناس الوطن من هو أكثر منه علماً أو مالاً أو سناً أو غير ذلك من الأمور.. فالأحسن دائما هو ذلك.. المتربع لحظتها على كرسي الأداء الرئاسي حتى يحل محله من هو الأحسن منه. فلن يكون من هو دون ذلك كرئيس حزب أو رئيس شركة أو قبيلة أو غير ذلك هو الأحسن

لحظتها، مهما ظن أولئك في أنفسهم أنهم الأحسن؛ فذلك مجرد ظن وادعاء لا يؤكده واقعهم خارج الحكم، كما هو حال الحاكم المتربع على كرسي الحكم لحظتها وإن كانوا أحسن منه في أدائهم الجزئي. الحياتي في نطاق الأداء الحياتي التي تقع تحت إدارة الحاكم نفسه.

ومن ثم، فالحاكم في أي وطن سيكون هو الأقدر والأقوى إدراكاً ومعرفة فيما يتعلق بكيفية حماية وتعزيز حكمه. بالأخص حين يمتلك الحاكم مشروع حكم، كمشروع خاص متميز، فإذا كان هناك من شيء سيحتاجه، فهو فيما يتصل بتجديد تمكينه كحاكم من خلال التجديد في الحياة. فالحاكم هو الأحسن سياسياً من ذلك الحزبي المحدود المعلومة، البعيد عن الأحداث والضغوط المختلفة التي يشهدها الحاكم كل لحظة. ومن ذلك الرئيس الحزبي الذي عجز عن توسيع ساحته العددية عن ذلك الحال الذي ظهر عليه يوم إعلان حزبه في أحسن حالاته وعن تمويل جريدته الأسبوعية، لأنه لا يتيسر له ما يتيسر للحاكم من معرفة وخبرة سياسية ومال لا يمكن أن تتوفر لغيره مهما كان، في غير مقعد الحكم، وبالأخص حينما يكون الحاكم، مثلاً، قد أمضى قرابة الربع قرن على كرسي الرئاسة وعاصر وصنع وأدار أحوالاً وتطورات وتحولات حياتية سياسية عظيمة وجوهرية، فهو مهما كان – كما يقال – القضاء يفقِّه القاضي (الحاكم) أكثر مما درس وقرأ وحفظ من كتب ومتون. فالحكم مدرسة حياتية عظيمة الأثر.. متفوقة جداً جداً.. فمثل هذا الحاكم سيكون هو الأحسن ممن لم يحكم ومن الحالمين بالحكم ومن المحاصرين بساحة ضيقة ومعلومة ضيقة.. وممن قرأ ألف كتاب في السياسة أو ألف كتاب في السباحة ولم يسبح بعد في مياه البحر المتلاطم.

مثل هذا الحاكم، وكل حاكم غالباً، بقدر رفضه لأسلوب التعليم في التعاطي معه، فهو لا يحتاج إلى معلم يعلمه السياسة والحكم بقدر ما يحتاج إلى مجدد يمده بما يجدده.. فالحاكم يستنزف أسرع من غيره إمكانية التجدد".[43]

لقد امتلك الرئيس علي عبدالله صالح، طيلة ثلاثة عقود من الحكم، كثيراً من الخبرة.. ويشهد له الكثيرون أنه مبدع في مجال السياسة الخارجية، كما أصبح صالح بسبب هذه الفترة الكبيرة في الحكم موسوعة يمنية هائلة تحيط بطبيعة الإنسان والمكان.. كما أنه وطيلة ثلاثين عاماً أصدر الآلاف من قرارات التعيين وأدى المئات من الأشخاص اليمين الدستورية أمام الرئيس.

عاصر الناس جميعهم؛ الكفء منهم والضعيف، النزيه والفاسد.. جابه التحديات والأزمات أشكالاً وألواناً.. ذاق حلاوة النجاح مرات عديدة وتجرع مرارة الإخفاق مرات عديدة كذلك. شاهد اليمن وهي تكبر أمامه، أجيالاً ومدناً وأحلاماً وتحديات، سمع أجمل القصائد، أطرف الزوامل وأندر الحكايات، تعرف على جوانب رائعة من نبوغ هذا الشعب.. استمع إلى الكثير من النصائح والدسائس وعبارات الحب ومعلقات النفاق..

عاصر الكثير من الرؤساء في العالم وبعث واستقبل الكثير من برقيات التهاني والتعازي، زار العديد من عواصم العالم، شارك في الكثير من القمم العربية والإسلامية والعالمية، تقدم بالكثير من المبادرات، حصد إعجاباً كبيراً وصدم بخذلان كبير، تعرف على الكثير من الشخصيات العربية والعالمية من كتاب ومثقفين وعلماء وساسة ورجال أعمال.. اطلع

---

[43] – أحمد قائد الأسودي "الحاكم.. التجديد السلمي للسلطة"، صادر عن مركز عبادي للدراسات والنشر ط1– 2003م.

على كم هائل من الأسرار وعايش بشكل يومي كتابات وتحليلات له أو عليه. إلى آخر ما هنالك من المعطيات الكثيفة التي تجعل من علي عبدالله صالح مستودعاً كبيراً للخبرة والحنكة والحكمة وارشيفاً هائلاً للأحداث والمتغيرات التي كان طرفاً فاعلاً فيها..

وفق الكاتب والمفكر أحمد قائد الأسودي، فإن مهمة كل حاكم تتمثل في تمكين المحكومين من حقوقهم، في ذات الوقت الذي ينبغي فيه على المحكومين تمكين الحاكم من حقه الشخصي، الذي هو الحكم، لكن ما يحدث الآن في اليمن هو وضع مختل؛ يريد المحكومون انتزاع حقوقهم عن طريق سلب الحاكم حقه الشخصي وابتزازه والتلويح المستمر بالتشكيك في شرعيته. ! باعتقادي؛ هذا ليس وضعاً سوياً، واليمنيون بهذه الطريقة يجعلون من الديمقراطية والحرية وسيلة للهدم، ويبحرون بها ضد تيار النواميس العامة التي تخضع لها الأداءات الصائبة في الكون.

للرئيس علي عبدالله صالح تحدياته التي لا يستطيع الإفصاح عنها بحكم أعباء المنصب الذي يشغله.. ومنها ما تحدثنا عنه في الفصل السابق، كما – باعتقادي– أن له قناعاته التي لا يريد الإفصاح عن بعضها؛ فهو –حسب تقديري– يبغض التعصب الحزبي الأعمى، كما يستخف بالتمترس المذهبي ويمقت الاصطفاف المناطقي. في ذات الوقت الذي يؤمن فيه أن أولى الأولويات هي أن يمارس اليمني الحرية بلا حدود، وأن يزاول الرفض بلا ترهيب، والانضواء بلا ترغيب، بمعنى، أن يتخذ اليمني قراره وأن يتحمل تبعات هذا القرار؛ ذلك أن ما حدث منذ قرون عديدة؛ هو أن اليمني كان مسلوب الإرادة، مهاناً، مرعوباً، لا تسكن فرائصه، ولا يرعوي جلادوه. لذا فقد سعى الرئيس علي عبدالله صالح إلى تقوية عنفوان الشعب على حساب عنفوان الحكم.. ذلك أن الشعب بعد أن يغدو قوياً وجسوراً فإن من المستحيل أن يخدعه دجال أو يقهره غاز أو مستبد.. لهذا وبشيء من الإنصاف، علينا أن نتأمل أن عهد علي عبدالله صالح، إلى اليوم،

كان، رغم كل المآخذ، مليئاً بالحيوية في كل اتجاه. كل التيارات وجدت فرصتها في عهد علي عبدالله صالح، كل الأفكار وجدت مناخها في عهد علي عبدالله صالح، الكل قال ما عنده، والكل أخذ ما يريده وترك ما لا يريده، انتعش الصدق والكذب، ازدهرت النزاهة والفساد، تجاسر الوطنيون وارتفعت أصوات الرويبضة، وأخذت كل المشاريع حيزها من التنفيذ.. والمواطن يلحظ كل ذلك. وله أن يستمتع بهذا الحراك ويختار منه ما يريد.

سيذكر التاريخ أن الرئيس علي عبدالله صالح لم يشأ أن تتوسع دائرة المدانين رغم توسع دائرة المخطئين أو دائرة الضالعين في الخطأ، ولم يشأ أن تتوسع دائرة المقبوحين-رغم تكاثر ما يمكن وصفه بـ "الأعمال القبيحة"- ويمكن اعتبار هذه السياسة ميزة للرئيس كما يمكن اعتبارها مأخذاً عليه.. سيذكر التاريخ أن صالح لم يأل جهداً في تضييق دائرة المنفيين خارج الوطن، كما لا أحد يستطيع أن يقول بأنه أقنع الرئيس بصوابية نهج ما.. في مضمار ما، ولم يأخذ الرئيس برأيه.

يمكن اختصار نهجه في الحكم أنه كان يقول لمن اتهم شخصاً آخر: أَثْبِتْ. ولمن نمّ: صارِحْ. ولمن اقترح: نَفِّذْ. ولمن شكا: أَشِرْ. ولمن تعب "غيّر جو".. يعبس في وجه من أخطأ، ويشفق عمن أبطأ، ويتعامى عمن سها.. تحتاج الحكمة أحياناً أن يصدق الكذوب حتى يعرف ما هدفه، وأن يطلق سراح المتهم ليعرف من معه، وأن يعفو ليعطي فرصة للتكفير.. يتضايق من ضيق الخيرين بالمقصرين، ومن رغبة النزيهين في استبعاد الآخرين.. وأحياناً يعاقب البطرين إذا اشتكوا من مسئول يعلم هو جدارته ونزاهته بتعيين السيئ عليهم.

وصحيح أنه يغلب عليه طابع العفو؛ لكنه في المقابل يمتلك حدساً عجيباً بمعادن الرجال، ولهذا نجده في كثير من المواضع لا يقترب من العفو مجرد الاقتراب، وصحيح أنه ليس دموياً، لكن هذا لا يعني أنه لا يمارس البطش وهذه ليست مذمة، فالأصح؛ أن علي عبدالله صالح، من الزعماء القلائل، الذين يعرفون متى يبطشون، وهذا -باعتقادي- لم يضطر إليه الرئيس إلا في حالات قليلة جداً. ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أنه هو من بدأ المواجهات العسكرية عام 1994م عندما وجد أن الأوضاع وصلت إلى طريق مسدود وأن الوحدة مهددة بالفعل. ويتجلى ذلك أيضاً في مواجهته الحازمة للقبائل التي كانت تتسبب في اختطاف السياح في مأرب وكذا المعركة الشرسة التي شنها ضد مجاميع من تنظيم القاعدة تحصنت في جبال حطاط في محافظة أبين وصولاً إلى مواجهة التمرد الحوثي في صعدة بعد استنفاد كافة الحلول السلمية.

فائق النشاط يعتني بصحته ومظهره جيداً، ويسأل عن كل شاردة وواردة، وكثيراً ما يوقع الآخرين بمصيدة التَثَبُّت المفاجئ.. ليس مذهبياً، ولا مناطقياً، ولا متحزباً، بالمعنى الأيديولوجي.. ثلاثون عاماً إلى الآن وهو رئيس، 12 منها بجزء من الوطن و18 لليمن كله، خلال هذه المدة -كما هو حال أي رئيس- تساق إليه عيون الأفكار وجميل الحِكَم، ولباب الفنون، وعصيب التحديات، وجليل العِبر، من شأن موقع كهذا أن يجعل أياً كان مثقفاً موسوعياً كبيراً. على أنه يمتلك من المواهب والقدرات الشخصية ما يميزه عن كثير من نظرائه، من ذلك، صفة الشجاعة والحدس العجيب الذي يشعره بمكامن الخطر، حتى وإن قدم له المحيطون كل براهين الطمأنة.

إلى ذلك؛ فإنه يمتاز بروح قبلية تجعله يكره التزمت الشديد في ذات الوقت الذي يشمئز فيه من التفسخ الزائد، كما يتمتع بتدين فطري

أمسك من خلاله بنواميس التوكل والاستعانة مع أخذ الحيطة والحذر. وشخصياً؛ لم أعثر منه على خطاب أو مقابلة يتحدث فيها عن شأن مستقبلي لم يقل فيها (إن شاءالله) أو (بإذن الله)، إلا في النادر وهذا هو السر كذلك وراء خوضه بعض المجازفات التي يعتمد فيها على إيمانه بالله وإيمانه بالشعب وحسن ظنه فيه؛ ذلك أن إرادة الشعب –كما قال صالح في إحدى مقابلاته– من إرادة الله. ومن هذه العبارة يبدو منه حسن الظن بالله ورضاه بمشيئته.

كل هذه الصفات، مضافاً إليها حنكة الرجل وتاريخه المليء بالمفاجآت، قد رسخت منذ عقد على الأقل في أذهان الكثيرين سلبية قاتلة، فركن الكثيرون إلى قدراته في تجاوز المآزق وكفوا عن مساعدته؛ بل ورسمت له هذه الصفات صورة أخرى في أذهانهم تصوره على أنه، أيضا، ولا أحد غيره، الوحيد القادر على اختلاق الأزمات وإخمادها كذلك. وهنا لابد أن نتوقف قليلاً لنؤكد على نقطة جوهرية بالغة الأهمية؛ وهو أن صالح منذ صعوده في اليوم الأول إلى سدة الرئاسة، برز له خصوم وحُساد مزمنون، وقفوا ضده من أول يوم من قبيل الاستخفاف به والتقليل من قدراته، وظلوا يراهنون على فشله وكان ينتصر عليهم لأنهم كانوا يحيكون له مكائد أقل بكثير من قدراته. هؤلاء تحولت خصومتهم مع الأيام إلى ما يشبه الحقد؛ وهم الآن –باعتقادي– الطرف الوحيد الذي درس شخصية علي عبدالله صالح جيداً، ومن ثم أصبحوا، منذ سنوات قليلة، يحيكون له مكائد مدروسة بدقة تتناسب مع قدراته؛ في حين أسلمه محبوه إلى قدراته وتركوه وحيداً في زحمة العواصف.

أسوأ ما يعانيه اليمنيون اليوم، هو تعودهم على مشاهدة الهدّر، وسلبية الخيرين تجاه الأحداث والتحديات؛ إذ أن علي عبدالله صالح –في تقديري–

حينما يتزاحم أصحاب الرؤى النافعة، ويستطيع محبو هذا البلد وكفاءاته الحقيقية أن يوصلوا إلى الرئيس معطيات سليمة، فإنه، وبلا شك، أشجع من يقود إلى انتصار مشرف.

أما في سياسته الخارجية ومهما كان حجم التآمر من بلد ما على اليمن.. فإنه طيلة 30 عاماً، لم يحدث أن دعم ولو شفهياً، جماعة متمردة أو معادية لنظام ذلك البلد. وقد حدثني مسئول سابق في هيئة الأركان الصومالية (يوم كان للصومال هيئة أركان)، أن علي عبدالله صالح هو الرئيس الوحيد طيلة الأزمة الصومالية الذي لا يتدخل لصالح طرف ضد طرف ولا لصالح مصالح خاصة به أو ببلاده، وإنما من أجل أن يتفق الصوماليون فيما بينهم بلا ضرر ولا ضرار.. ولهذا فالكل يحترمه. فهو لم يتدخل بالشئون الداخلية لأي بلد شقيق أو صديق.

حتى حين نسلم بحرصه على مصالحه الشخصية، فإن مصلحة الرئيس الشخصية وفقاً لمعايير العقل الخالية من المزايدة، هي في أن يكون اليمن (الذي جعله رئيساً عليه) قوياً وأن يظل موحداً.. ذلك أن علي عبدالله صالح –وفقاً للكاتب العربي الكبير محمد حسنين هيكل- "قد دخل التاريخ وليس بإمكان أحد أن يخرجه منه".

أحياناً؛ يبذل الرئيس ما بوسعه ليتفادى وقوع خصمه في مواجهة غير متكافئة معه، لكنه في المقابل عنيد للغاية، يُعمل قواه العقلية على الدوام؛ ويجعل الآخر يستنفد كل تكهنات الدمار والبوار، ليرسم بسمته الحقيقية حين يتفاجأ الجميع أن الأمور عادت من جديد في صالحه، وأنه تجاوز هذا المأزق أيضاً. من هنا لا يبدو خافياً بأن الأداء السياسي في اليمن تشخصن إلى حد بعيد. وأوضح ما يكون ذلك في خطابات الرئيس التي بدا معظمها في السنوات الأخيرة وكأنه ردود غاضبة على تصريحات معارضيه الصحفية

التي لم تصل أصلاً إلى جمهور التلفزيون، وكلما بدا الرئيس منفعلاً وعابساً أيقن معارضوه أنه يقرأ تصريحاتهم، ومن ثم يسترسلون بإلقاء تصريحات جديدة أكثر إغاظة واستفزازاً وهكذا دواليك. إلى أن دخلت السياسة في منحاها التنابزي دائرة الاهتمام الشعبي، فأصبحت حتى النساء في القرى يستهلكن السياسة، وأصبح نادراً ما تجد أشخاصاً من عامة الشعب يتبادلون الخبرة فيما بينهم في أمور الزراعة أو تربية الأولاد أو محامد الأخلاق.. الخ.

قوة الرئيس علي عبدالله صالح تكمن في أنه يعرف بدقة حدود قوته.. وأنه ،بعد كل هذا اللغط، أصبح من وجهة نظري ينظر إلى نفسه باحترام أكثر بكثير من قبل؛ وذلك حينما يرى انتهازية الآخرين أمامه، سواء الأنصار أو الخصوم، وإن كان لهذا الأمر انعكاس سلبي في أحد وجوهه، يتمثل في أنه لم يعد يحب.. ولم يعد يثق.. ولم يعد يصدق.. خصوصاً، وأنه قد سمع كل عبارات الولاء ممن يدعي الولاء له، وكل كلمات الإطراء والمبالغة، كما تلقى أيضاً أقسى التهم وأبشع الإساءات.

طائرة بلا وقود

منذ قيام الثورة اليمنية وحتى العام 90 كان اليمنيون يحركهم هدف وجداني كبير وهو الوحدة. وكان من شأن هدف كهذا أن يمنح النضال زخماً عالياً وقدسية كبيرة.. لكن اليمنيين بعد تحقيق وحدتهم 22 مايو 1990م وقعوا في مأزق انعدام الهدف الكبير.. مع ضرورة الاعتراف أن ترسيخ الديمقراطية يعد هدفاً كبيراً.. لكن اليمنيين كما أسلفنا أقدموا على ممارسة الديمقراطية بشكل أفقدهم التواد والتحاب.. الديمقراطية وحدها لاتكفي وهذا يستدعي في هذه اللحظة اليمنية أن يراجعوا طريقة تجسيدهم للديمقراطية.. مع ضرورة أن لا ينسيهم مثل هذا الأمر تحديات أخرى لا تقل خطورة، فشلوا فيها منذ العام 90 إلى الآن وتتمثل في تثبيت المنجزات الوطنية في أذهان التاريخ وعقول النشء وذاكرة الأجيال، حتى لا يتسلل على غفلة منهم لصوص التاريخ من جديد[44].. ولذا يتوجب على اليمني أن يمسك بكل الخيوط المنسية التي سببت انحساره وأخرت إسهامه في ركب الحضارة وفي تقدم الإنسانية.

* * *

أحيانا تلتبس الرؤية على الشعوب، ويصعب عليها تحديد ماهية اللحظة التي وصلت إليها.. والحاصل الآن هو أن اليمن رغم تجاوزه الكثير من الصعوبات والمحن إلا أنه في ذات الوقت قد تلقى بالفعل

---

[44] – ولعل من أعراض القصور في هذا الجانب اندلاع التمرد الحوثي في صعدة وظهور بعض الأصوات التي تنادي بعودة البراميل..

ضربات موجعة في مضمار العمل الوطني، وعلى صعيد التنمية والتآلف. لكن بالإمكان تدارك أضرارها، فما زال الجميع، وفقاً لهذه الرؤية، يلعبون في الوقت الأصلي، وإن كانوا في الدقائق الأخيرة منه. وبالتالي، بمستطاع اليمنيين أن يجعلوا من كل الضربات التي تلقاها الجسد اليمني، ضربات "تقوي الظهر لكنها لا تكسره"، بحيث يبدو وكأن المستقبل لم يزل تحت السيطرة، ويتوقف نوع هذا المستقبل على نوعية وكفاءة الفعل الوطني العام الذي يمكن اتخاذه خلال قادم الأشهر والسنوات.

تسير اليمن الآن إلى حيث يقودها اليمنيون.. فقط؛ ينبغي عليهم أن يوقنوا أن هذا الأمر هو في مستطاعهم، بل وأن يتيقنوا من أن مراحل أكثر صعوبة قد تم اجتيازها من قبل، وبالتالي يتبقى على الجميع – باعتقادي– التوصل إلى تشخيص دقيق لماهية اللحظة المعاشة، بأفراحها وأتراحها، تشخيصاً دقيقاً؛ يساعدهم على معرفة أين يقفون الآن بالضبط، وما الخطوة التالية التي عليهم اتخاذها.

* * *

منذ ما يزيد على عقد من الزمان كان الشعب على هامش الصراع يرقب عن كثب أسعاره في سوق المزايدات، التي تعتسف الحديث أحياناً عن همومه بطريقة جافة، خالية من الهم الوطني وخالية من النبل والإحساس بالمسئولية، كل هذا، جعل من المشروع الثقافي للوحدة الوطنية أمراً في "غيابة الجب"، تماماً كما هو حال فكر الثورة الذي تدهور قبل ذلك بكثير، فكان من الطبيعي حينما تجتمع المعاناة والانتهازية السياسية والتطرف في الطرح، مع غياب المشروع الوجداني الناظم لأشواق الشعب، من الطبيعي في ظل ذلك أن تبرز المشاريع الصغيرة القروية

والعنصرية والمذهبية، التي أطلت برأسها من بين الرماد، وراحت تهتاج مقتاتة من برميل قمامة التاريخ.

وفي حال كهذه، فإن الرهان على حكمة الشعب فيه قدر كبير من المجازفة؛ إذ ما الذي تنتظره من شعب يجوع لكنه لا ينتج، يحتاج لكنه لا يبتكر، يريد لكنه لا يسعى، يحتار لكنه لا يتحرى.

لقد تعود اليمنيون على معايشة الهدر، وفي ظل الحراك الحزبي الموسوم بالانتهازية؛ غابت فكرة دراسة الظاهرة الشعبية والمزاج العام، ولأن الجميع (الحاكم والمعارض) لا يشعر بحاجته إلى الشعب فقد راحوا يسوقون له توصيفات من قبيل الاستخفاف، وأصبح الشعب، وفقا لنظرية قوى الحشد في الحزب الحاكم، عبارة عن أصوات في موسم الانتخاب وفي نظر المعارضة شارع تزور إرادته في الانتخابات لكنه سوف يزلزل عروش الظلم ويعلن العصيان والإضراب!! إلى ما هنالك من تعبيرات لا تأخذ في حسبانها مصلحة الشعب ولا تفكر في عواقب ما تدعو إليه.

وفقاً لما سبق؛ لم تعد الديمقراطية آلية للبناء والتنافس الشريف وتجنيب الجميع بوادر الصراع بين المتنافسين؛ بل غدت بهذه الصورة مادة للصراع إلى جانب صيرورتها في نفس الوقت صورة من أرقى صور التبعية المعاصرة!! وفي زحمة المبالغات المبشرة بالخطر الوشيك والانهيار الكبير تفقد الألفاظ قدرتها على الإثارة، وبالتالي قد يأتي الخطر الحقيقي فلا يصدَّق، تماماً كما هو حال الخطاب في الجهة المقابلة التي تتحدث عن المنجزات والمعجزات بطريقة تفقد الألفاظ معها الدلالة، وتستفز البعض لتفنيد مضامينها ليقعوا إذ ذاك في مأزق انعدام الإحساس بالحد الأدنى من

إيجابيات الحاضر، التي هي ليست بالقليل، لكن انعدام تثمينها يجعلها تتسرب من بين الأصابع.

* * *

"خُلق الإنسان عجولا"، وفي تقديري، فإن هرمونات العجلة في الإنسان اليمني قد تكون أكثر بكثير من غيره من البشر. وقياساً بحجم المدة الزمنية التي انقضت من عمر الوحدة بكل ما حفلت به من انجازات وإخفاقات فإن أمام النخب اليمنية مهاماً كبيرة في الخمسين سنة القادمة في سبيل وضع مداميك الدولة الحديثة مما يؤهل اليمن لأن يكون رقماً صحيحاً في حلبة الأمم وبما يتيح له دورة حضارية جديدة هو في مسيس الحاجة إليها بعد قرون طويلة من الغياب.

مع ذلك فإنه ليس من الانتقاص التأكيد على أن اليمنيين فوتوا على أنفسهم، مراراً، فرصة الاحتفاء بشيء كان ينبغي عليهم أن يحتفوا به، لهذا لا تتعزز النقلات الكبرى في الوعي العام الجمعي لدينا في اليمن، ولا تأخذ حقها من التثمين؛ ولقد نبه المولى عز وجل في كتابه الحكيم، إلى أن هذه ليست سمة مستحدثة في اليمنيين؛ بل هي عريقة جداً. وكانت سبباً في ذهاب ريحهم وانكسار شوكتهم، إذ هم في أوج قوتهم كفروا بأنعم الله.. "فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا". [سبأ : 19]. "وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ" [سبأ : 16].

لا يمكن لأحد الإدعاء بأننا نعيش في حال لا يعيبه شيء؛ بل المؤكد أن اليمنيين الآن يعيشون مرحلة المحاولة، وطالما هم كذلك، فلا شيء إذن يدعو إلى الجزع؛ فقط عليهم أن يدرسوا تاريخهم بعناية، وأن يتعمقوا في الإنسان اليمني، مداخل قوته ومكامن ضعفه، وذلك حتى يصوغوا

لأنفسهم استراتيجية شاملة للنهوض بالإنسان اليمني، تتعالى على كوابح اللحظة المعاشة وحساباتها الضيقة، وتنبذ جانباً المصالح الجزئية للأشخاص والجماعات، واضعة نصب عينيها أن ما يصلح لشعب لا يصلح لغيره، وأن استيراد النظريات، سواء في الحكم أو في الاقتصاد أو الثقافة، هو أمر عبثي لا طائل منه، ولا موجب له. ألم يؤمن اليمنيون، بعد، أنهم وحدهم مفتاح خلاصهم؟! وأن الخطوة التالية التي عليهم إنجازها لن يقدمها لهم خبراء أجانب كما أن تشخيص اللحظة الحالية، لا يجب أبداً أن يتم بنفس المعايير المستخدمة.

* * *

بالرغم من كل الأخطاء والسلبيات التي رافقت التزاحم الحزبي والعمل السياسي إلا أن بالإمكان التأكيد أنه لا خوف على البلاد من الناحية السياسية؛ في المقابل فإن التهديد الحقيقي يكمن في الأزمات غير المحسوسة والمتعلقة بالجوانب التعليمية والركود الثقافي وتلوث منظومة القيم التي تتحكم في أداءات المجتمع وتصبغ وسائله في الترقي وتحقيق الذات.. ولذاينبغي أن يأخذ جانب البحث العلمي والدراسات دوره في تنسيق الصورة القادمة؛ كما إن على الفنون والآداب أن تأخذ موقعها من جديد في تغذية الوجدان اليمني بالأشواق العظيمة؛ ويتوجب على الرئيس الاهتمام بهذا الجانب الذي لم يعط حقه منذ أن استهلكتنا مشاكل السياسة.

* * *

طائرة اليمنيين جاهزة للانطلاق. لكنها بلا وقود.. لقد غاب المفكرون والأدباء والعلماء والمؤرخون والتربويون والشعراء عن معركة البناء،

وكانوا هم وحدهم من سيعصر روحه وقوداً لهذه الطائرة. ويحرك وجدان المجتمع في خضم مشروع كبير. ذلك أن اليمن حينما يتوحد لا يستطيع العيش في المنطقة الرمادية؛ فهو إما أن يصير قوياً.. ويمارس دوراً حيوياً في مجاله فيظل موحداً، وإما أن ينشغل بنفسه فيصيبه الضعف وتنتابه من جديد لوثة التمزق.

الشعب طيلة هذه السنوات الماضية صامد بفعل القوة الذاتية فيه، ماض بفعل رغبته الكامنة في المضي. رغم أن المصابيح التي كان يراد لها أن تضيء دربه ليواصل الصعود، سُلطت للأسف على عينيه وكأنها تريد به التعثر والسقوط إلى ما هو أقسى وأخزى.

ثمة طاقة هائلة في اليمن؛ لن يستغرقها إلا مشروع كبير، ولن يقود دفتها إلا جميع النخب من جميع الانتماءات السياسية والثقافية، بشكل أو بآخر..

يقول الرئيس علي عبدالله صالح في مقدمته للميثاق الوطني 1982م "منذ أن ألقت الأقدار على كاهلي حمل أمانة قيادة الأمة وجدت نفسي مشغولاً بجملة من الهموم التي كان في مقدمتها خطورة ترك الساحة خالية من فكر وطني"؛ فوا عجبي. هذا بالضبط هو ما أريد قوله طيلة هذه الصفحات.

* * *

لقد ازداد سكان اليمن منذ تولي علي عبدالله صالح الحكم بنسبة تفوق الضعف بقليل، وبالتالي فإن الشريحة الأوسع الآن هي شريحة الشباب.. الشباب الشريحة التي تصنع المعجزات، ويستولي عليها الحنين

لأن تشاهد شيئاً من التحولات. الشباب الذين يجدون أن عليهم القيام بشيء ما؛ لكن أحداً لم يقل لهم ما هو.. سوى بعض الدعوات المتنافرة التي تدعوهم للتصفيق الحار أو العصيان الأخرق. يقع اليمن الآن، بسبب هؤلاء الشباب، على أعتاب تحول جديد؛ لم يرسم خطوطه أحد. يريدون أن يندرجوا ضمن مشروع عظيم، يريدون أن يبذلوا أكثر مما بذل الأولون. يريدون أن يحققوا ذواتهم وأن يثبتوا للعالم أنهم موجودون. يريدون معاني عظيمة يعتنقونها، ونماذج رائعة يحذون حذوها ونفيراً وطنياً هادراً يحتشدون في مجاله. يريدون مضماراً يثبتون فيه أقدريتهم على السبق. ويريدون غايات نبيلة تمكنهم من إظهار ظمأهم إلى التضحية.

هؤلاء الآن هم الحاضر الذي لم يستطع أن يمسك بتلابيبه أحد. وهم الطاقة التي هدها الصبر وعذبها الغياب. بإمكانهم أن يكونوا قوافل رفعة كما بإمكانهم أن يصبحوا طوفان خراب. لقد أمكن لعلي عبدالله صالح أن يهيئ الوطن لانتقالة جديدة ومفصلية، لكن معاونيه لم يساعدوه في وضع ملامح هذه الانتقالة.

لعل أسوأ ما يعانيه اليمنيون اليوم هو تعودهم على مشاهدة الهدر.. الهدر في الطاقات، والهدر في الأوقات، والهدر في الثروات، وكذا تعوُّد التحديات على غياب الكوادر الوطنية الحقة. وأضيف إن أسوأ ما يحتشد به الواقع المعاش الذي نجم عن العناد والأنانية وانعدام المشروع الوطني، أن لا مساحة للإسهام، أن ثمة حرباً ضروساً ضد دائرة المتاحات. أن ثمة انسداداً غير عفوي لكثير من منافذ التخلق والإبداع.. أقولها كمواطن يقرأ القلق العاجز في العيون، ويشهد بكل جوارحه، أن الناس قد تعبوا من

القعود بلا تعب. أن البلاد تسير ولكن بلا روح. أن قيماً كالصدق والإيثار وحب اليمن؛ أصبحت مدعاة للتهكم..

الساحة الآن تحتاج إلى برنامج جديد تمتلئ به قلـوب القـادمين الجـدد الذين لا يخـافون سـوى الله ولا يكرهـون سـوى الجمـود، تفتقـر السـاحة اليمنية إلى مشروع وطني جـامع؛ ينـتظم أشـواق اليمنـيين ليحققـوا نقلـة ملموسة تقوي لديهم الشـعور بـالاعتزاز، وتضـاعف لـديهم الإحسـاس بالفاعلية والكينونة، وتنقيهم مما علق من شوائب التزاحم الحزبي وعوادم المشروعات المضنية.

يحتاج الأداء اليمني إلى محرك وجداني كبير؛ يذلل أمامهم سبل التقـدم، ويقوي في قلوبهم رغبة الإقـدام ولمعـة المبـادرة.. يـزين الصـبر في أعيـنهم ويجعل المعاناة بطعم الشهد. ذلك أن الوازع أقوى مـن القـانون، والـدافع أقوى من الراتـب؛ إذ الفسـاد الحاصـل الآن لـيس سـوى عاهـة أخلاقيـة مصدرها فساد النفوس وبالتالي لن تنفع معه أقوى وأذكى آليات المكافحة، لأنه سيبتكر بدوره آليات أدهى في التحايل.. أقول: لن يقلع الفاسدون عن ممارسة الفساد ما لم يكونوا ممتلئين بأشواق كبيرة تصـرفهم عمـا يضـرهم. وما لم يصلوا إلى قناعة أن الفساد ضار بهم أفـراداً وشـعباً.. وأن البطولـة والمكانة يتمثلان في التضحية والإيثار والبذل وليس في الاستحواذ والهلع.. ذلك "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

تتشظى الآن اهتمامات الإنسان اليمني الذي أفقدته المعاناة بعضاً مـن حرارة الولاء وشيئاً من عزة الانتماء.. يحتاج اليمنيـون في هـذه المرحلـة أن يسيروا موحدي الخُطى.. مجموعي الشمل.. ذلك أن أمامهم تحـديات كـبيرة كما أن الواقع مليء بالتصـورات الشـائهة والأداءات العقيمـة والتراكـن

الأعمى والسلبية القاتلة ومليء بالمشاريع غير البريئة التي تريد جر الناس إلى ساحة الجزع ومربع التعاسة ودائرة الانفعال الأهوج.. يحتاجون إلى استراتيجية واضحة ونبيلة يشترك جميعهم في صياغتها وتنفيذها يقودهم في ذلك رغبة صادقة لإصلاح الأوضاع ويضبط إيقاعهم محرك وجداني كبير.

ولا شك أن المحرك الوجداني الكبير هو حب اليمن؛ فعندما تمتلئ القلوب بحب اليمن تصبح المناطقية صفراً، والمذهبية كفراً والتعصب الحزبي نوعاً راقياً من البلادة.

عندما يتمكن في قلوب الناس حب اليمن تمتلئ أيامهم بالمجيء، وتغمر أرواحهم بالوضوء، وتمتلئ قلوبهم بالسكينة والحب والمثابرة والنظر البعيد.